تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء السادس عشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء السادس عشر

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَالَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

فلا تصاحبنى : أى فلا تجعلنى صاحبا لك ، بلغت من لدنى عذرا : أى وجدت عذرا من قبلى ، قرية : هى أنطاكية كما روى عن ابن عباس أو الأبلة أو الناصرة ، ولا يوثق بصحة شىء من هذا ، استطعما أهلها : أى طلبا منهم أن يطعموهما ، أن يضيفوهما : أى ينزلوهما أضيافا ؛ يقال ضافه إذا كان له ضيفا ، وأضافه وضيّفه : أنزله لديه ضيفا ؛ وأصل ضاف : مال، من قولهم ضاف السهم عن الهدف : أى مال ، جدارا:

أى حائطا ، أن ينقض : أى يسقط بسرعة ، وقد كثر فى كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم كما قال :

يريد الرمح صدر أبى بَرَاء ويعدل عن دماء بنى عقيل

أقامه : أى مسحه بيده فقام كما روى عن ابن عباس ، والتأويل من آل الأمر إلى كذا : أى صار إليه ، فإذا قيل ما تأويله : أى مامصيره .

المعنى الجملى

لايزال الكلام متصلا فى قصص موسى والخضر عليهما السلام ، ولكن لوحظ فى تقسيم القرآن الكريم إلى أجزائه الثلاثين جانب اللفظ لاجانب المعنى ، ولذا تجد نهاية جزء وبداءة آخر حيث لايزال الكلام فى معنى واحد لم يتم بعد كما هنا .

الإيضاح

(قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا) زاد كلمة لك على سابقة لتشديد العتاب على رفض الوصية ، ووسمه بقلة الصبر والثبات حين تكرر منه الاشمئزاز والاستكبار مع عدم الارعواء بالتذكير أول مرة .

قال البغوى : روى أن يوشع كان يقول لموسى : اذكر العهد الذى أنت عليه .

(قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى) أى قال موسى عليه السلام : إن سألتك عن شىء بعدها من عجيب أفعالك التى أشاهدها وطلبت منك بيان حكمته ، فضلا عن المناقشة والاعتراض عليه ، فلا تجعلنى لك صاحبا .

(قد بلغت من لدنى عذرا) أى قد بلغت الغاية التى تعذر بسببها فى فراق ، إذ خالفتك مرة بعد أخرى ، وهذا كلام نادم أشد الندامة قد اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف .

وقد روى فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، لكن أخذته من صاحبه ذمامة

(حياء وإشفاق من الذم) فقال (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا) » .

(فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما) أى فانطلق الخضر وموسى بعد المرتين الأوليين حتى وصلا إلى قرية طلبا من أهلها أن يطعموهما فأبوا أن يضيفوهما ، وفى الحديث « كانوا أهل قرية لئاما بخلاء » وفى قوله (فأبوا أن يضيفوهما) دون أن يقول فأبوا أن يطعموهما ـ زيادة تشنيع عليهم ووصفهم بالدناءة والشح ، فإن الكريم قد يرد السائل المستطعم ولا يعاب ، ولكن لا يرد الغريب المستضيف إلا لئيم ، ألا تراهم يقولون فى أهاجيهم : فلان يطرد الضيف : وعن قتادة شر القُرى التى لا يضاف فيها ، ولا يعرف لابن السبيل حقه .

(فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقضّ فأقامه) أى فوجدا فى القرية حائطا مائلا مشرفا على السقوط فمسحه بيده فقام واستوى ، وكان ذلك من معجزاته .

(قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) أى قال موسى ذلك تحريضا للخضر وحثا له على أخذ الجُعْل والأجر على فعله ، لإنفاقه فى ثمن الطعام والشراب وسائر مهامّ المعيشة .

(قال هذا فراق بينى وبينك) أى قال الخضر عليه السلام لموسى : هذا الاعتراض المتوالى منك هو سبب الفراق بينى وبينك على حسب ما شرطت على نفسك ، وإنما كان هذا سبب الفراق دون الأولين ، لأن ظاهرهما منكر فكان معذورا دون هذا ، إذ لا ينكر الإحسان إلى المسىء بل يحمد .

(سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) أى سأخبرك بعاقبة هذه الأفعال التى صدرت منى ، وهى : خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ، ومآلها خلاص السفينة من اليد الغاصبة ، وخلاص أبوى الغلام من شره مع الفوز ببدل حسن ، واستخراج اليتيمين للكنز .

وفى قوله : (بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) دون أن يقول بتأويل ما فعلت ، أو بتأويل ما رأيت ونحوهما ــ تعريض به عليه السلام وعتاب له .

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَالَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) .

شرح المفردات

المساكين : واحدهم مسكين ؛ وهو الضعيف العاجز عن الكسب لأمر فى نفسه أو فى بدنه ، يعملون فى البحر ، أى يؤاجرون ويكتسبون ، أعيبها : أى أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ، وراءهم : أى أمامهم ؛ وهو لفظ يستعمل فى الشىء وضده كما قال :

أليس ورائى أن أدب على العصا فيأمن أعدائى ويسأمنى أهلى

وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ أمامهم .

خشينا : أى خفنا ، أن يرهقهما : أى يحملهما ، طغيانا : أى مجاوزة للحدود الإلهية ، زكاة : أى طهارة من الذنوب ، رحما : أى رحمة كالكثر والكثرة ، عن أمرى : أى عن رأيى واجتهادى ، مالم تسطع : أى تستطع ماضيه اسطاع الذى أصله استطاع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأمور التى رآها موسى عليه السلام حين صاحب الخضر، وذكر ما كان من اعتراض موسى عليه مرة بعد أخرى، وقد كان أعلمه من قبل أنه لا يستطيع معه صبرا، وكان من جرّاء ذلك أنه فارقه ولم يستطع صحبته - أردف ذلك بتفسير ما أشكل عليه أمره، مما ينكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر على حكمة باطنة، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم يحكمون بناء على الظواهر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «نحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر».

وأحكام هذا العالم مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة فى نفس الأمر، وهذه لا يطلع الله عليها إلا بعض خواص عباده، ومن ثم اعترض موسى على ما رأى ولم يعلم ما آتاه الله الخضر من قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور، ويطلع على حقائق الأشياء، فكانت مرتبة موسى فى معرفة الشرائع والأحكام بناء على الظواهر، ومرتبة هذا العالم الوقوف على بواطن الأمور وحقائق الأشياء والاطلاع على أسرارها الكامنة.

وخلاصة المسائل الثلاث — إنه حين يتعارض ضرران يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى، فلو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها الملك وفاتت منافعها بتاتا، ولو لم يقتل ذلك الغلام لكان بقاؤه مفسدة لوالديه فى دينهم ودنياهم، ولأن المشقة الحاصلة بإقامة الجدار أقل ضررا من سقوطه، إذ بالسقوط كان يضيع مال أولئك الأيتام.

وجمل الأمر فى ذلك — إن الله أطلع الخضر على بواطن الأشياء وحقائقها فى أنفسها، وهذا لا يمكن تعلمه إلا بتصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسمية، ومن ثم قال فى صفة علمه: «وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» وموسى عليه السلام لما كملت مرتبته فى علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم، ليعلمه أن كمال

المعرفة فى أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على معرفة حقائق الأشياء على ما هى عليها فى الواقع .

الإيضاح

(أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أى أما فعلى ما فعلت بالسفينة ، فلأنها كانت لقوم ضعفاء لايقدرون على دفع الظلمة ، وكانوا يؤاجرونها ويكتسبون قوتهم منها، فأردت أن أعيبها بالخرق الذى خرقته، وكان قدامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة للاستعمال غصبا ، ويدع كل معيبة ، فعبتها لأرده عنها .

وخلاصة ذلك — إن السفينة كانت لقوم مساكين عجزة يكتسبون بها ، فأردت بما فعلت إعانتهم على ما يخافون ويعجزون عن دفعه من غصب ملك قدامهم ، من عادته غصب السفن الصالحة .

(وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) أى وأما الغلام فإنه كان كافرا وكان أبواه مؤمنين فخفنا أن يحملهما حبه على متابعته على الكفر .

قال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقى لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب ، وفى الحديث « لايقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيرا له » ، وقال تعالى : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

وخلاصة ذلك — إنا علمنا أنه لو أدرك وبلغ لدعا أبويه إلى الكفر فأجاباه ودخلا معه فى دينه لفرط حبهما له .

(فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما) أى قال هذا العالم :

أردنا أن يرزق الله هذين الأبوين ولدا يكون خيرا من هذا الولد دينا وصلاحا وأقرب عطفا ورحمة بأبويه وبرا بهما وشفقة عليهما .

(وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) أى إن الداعى إلى إقامة الجدار أنه كان تحته كنز ، وكان ليتيمين فى المدينة وكان أبوهما صالحا ، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما ورعاية لصلاح أبيهما ، فأمرنى بإقامة الجدار لتلك المصالح ؛ إذ لو سقط ذلك لضاع الكنز وقد كان مشرفا على السقوط .

(وما فعلته عن أمرى) أى وما فعلت الذى رأيتنى أفعله عن رأيى ومن تلقاء نفسى ، بل فعلته عن أمر الله إياى به ، لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا تجوز إلا بالوحى والنص القاطع .

(ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) أى هذا الذى ذكرت لك من الأسباب التى من أجلها فعلت الأفعال التى استنكرتها ، هو بيان ما تئول إليه الأفعال التى ضقت بها ذرعا ، ولم تصبر حتى أخبرك بها ابتداء .

تنبيه

لذكر هذه القصة فى الكتاب الكريم فوائد :

(١) ألا يُعْجَب المرء بعلمه ، وألا يبادر إلى إنكار ما لا يستحسنه ، فلعل فيه سرا لا يعرفه .

(٢) إن فيها تأديبا لنبيه بترك طلب الاستعجال بعقوبة المشركين الذين كذبوه واستهزءوا به وبكتابه ، لأن تأويل ذلك صائر إلى هلاكهم وبوارهم بالسيف فى الدنيا واستحقاقهم من الله فى الآخرة الخزى والعذاب الدائم .

(٣) إن ما حدث فيها يجرى مثله كل يوم فى هذه الحياة ، ألا ترى أن قتل الغلام وهو صغير لا ذنب له يشبه الطاعون الذى يهلك الأمم ويفتك بها فتكا ذريعا ،

والبهائم التى تفتك بها السباع أو تأكلها الناس. ولو تأمل الناس حكمة ذلك لعلموا أنهم لو بقوا على الأرض مائة عام أونحوها ولم يمت منهم أحد لضاقت بهم الأرض ، ولماتوا جوعا ، ولأكل الابن أباه ، ولأصبحت الأرض منتنة قذرة ، ولهلك الناس جميعا ، وأن أكل كواسر الطير لصغارها ليخلو الجو والأرض من الحيوان المزدحمة ، ولولا ذلك لأصبحت الأرض مضرة بالناس والحيوان ، فاقتناصها رحمة ونعمة على الناس .

وأن خرق السفينة التى هى لمساكين أشبه بموت بقرة فلاح فقير بجانبه رجل غنى لم تصب بقرته بسوء ، وذلك إنما يكون لحكم لايعلمها إلا الله ، وقد يكون منها أن الفقير حين موته يخرج من هذا العالم خفيفا لايحزنه شىء ، وأن الغنى إذا لم يهذب نفسه تكون روحه مجذوبة إلى هذا العالم متطلعة إلى ما فيه ، فيصير فى حسرة حين موته .

وأن ذكر الجدار وإقامته تشيران إلى كل من يرى أنه ليس أهلا للنعمة ظاهرا وقد أغدقت عليه ، فأهل هذه القرية اللؤماء الأشحاء ليسوا أهلا للإكرام .

وخلاصة ما قاله الخضر : إن هذه الأعمال ليست من جنس أعمال الناس ، بل هى من أعمال الله ، وإنما كنت واسطة فيها ، فهى نماذج لفعل ربكم فى هذه الحياة .

قصص ذى القرنين ويأجوج ومأجوج وسدهما

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧)

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ، وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) .

شرح المفردات

ذكرا : أى نبأ مذكورا وهو القرآن ، ومكنه ومكن له ، كنصحه ونصح له : أى مهد له الأسباب وجعله قادرا على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى ، سببا : أى طريقا يوصله إليه من علم أو قدرة أو آلة ، حمئة : أى ذات حمأة وهى الطين الأسود ، حسنا : أى أمرا ذا حسن ، نكرا : أى منكرا فظيعا ، الحسنى : أى المثوبة الحسنى ، يسرا : أى سهلا ميسرا غير شاق ، سترا : أى بناء وكانوا إذا طلعت

الشمس تغوّروا فى المياه و إذا غربت خرجوا ، خبرا: أى علما يتعلق بظواهره وخفاياه، السدين : أى الجبلين ، يفقهون : يفهمون ، خرجا : أى جُعْلا من أموالنا على سبيل التبرع ، والخراج : مالزمك أداؤه ، بقوة : أى بما يتقوى به على المقصود من الآلات والناس ، ردما : أى حاجزا حصينا ، والردم : أكبر من السد وأوثق يقال ثوب مردم : أى فيه رقاع فوق رقاع ، وزبر : واحدها زبرة (بضم فسكون) كغرفة : وهى القطعة العظيمة ، والصدفين : واحدها صدف ، وهو جانب الجبل ، قطرا : أى نحاسا مذابا وقيل رَصاصا مذابا ، أن يظهروه : أى أن يعلوه و يرقوا فوقه لارتفاعه وملاسته ، رحمة : أى أثر رحمة ، دكاء : أى مثل دكاء وهى الناقة لاسنام لها ؛ والمراد بها الأرض المستوية ، حقا : أى ثابتا واقعا لامحالة ، يموج : أى يضطرب اضطراب البحر ، والصور : قرن ينفخ فيه .

المعنى الجملى

هذه القصة رابعة ثلاثة من القصص التى ذكرت فى هذه السورة ، وقد قدمنا أن كفار مكة بعثوا إلى أهل الكتاب يطلبون إليهم ما يمتحنون به النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : سلوه عن رجل طوّاف فى الأرض ، وعن فتية لايدرى ماصنعوا، وعن الروح؟ فنزلت سورة الكهف .

وقبل الشروع فى تفسير هذه الآيات الكريمة لابد من بيان أمور تمس إليها الحاجة ، مَن ذو القرنين ؟ من يأجوج ومأجوج ؟ أين سد ذى القرنين ؟ .

ذو القرنين

يرى كثير من العلماء والمؤرخين أنه هو إسكندر بن فيلبس الرومى تلميذ أرسطاطاليس الفيلسوف المسمى بالمعلم الأول الذى انتشرت فلسفته فى الأمة الإسلامية، وقد كان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة وكان من أهل مقدونيا وحارب الفرس واستولى

على ملك دارا وتزوج ابنته ، ثم سافر إلى الهند وحارب هناك ، ثم حكم مصر و بنى الاسكندرية ؛ والدليل على ذلك أنه لم يعرف التاريخ أن أحدا من الملوك دوّخ العالم وسار شرقا وغربا وغلب أكثر المعمور غيره .

و يرى أبو الرَّيْحان البَيْرونى المنجم فى كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) أنه من حِمْيَرَ واسمه أبو بكر بن إِفْريقش ، وقد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومَرَّاكُش وغيرهما ، و بنى مدينة إفريقيّة فسميت القارة كلها باسمه ، وهو الذى افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المشارق والمغارب يبتغى أسباب ملك من كريم مرشد
فرأى مآب الشمس عند غروبها فى عين ذى خُلُب وثَأْطٍ حَرْمَد[1]

وسمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس .

والدليل على أنه حِمْيَرِىّ أن الأذواء إنما يعرفون فى بلاد حمير دون بلاد اليونان، وهو من الدولة الحميرية التى حكمت من سنة ١١٥ ق م إلى ٥٥٢ ب م من الطبقة الثانية منها ، وملوكها يسمون التبابعة واحدهم تُبَّع (بضم التاء وتشديد الباء) .

يأجوج ومأجوج

يأجوج : هم التتر ، ومأجوج : هم المغول ، وأصلهما من أب واحد يسمى (ترك) وكانوا يسكنون الجزء الشمالى من آسيا ، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غربا بما يلى بلاد التركستان .

وقد ذكر مؤرخو العرب والإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير فى أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها ، فكثيرا ما أفسدوا فى الأرض ، ودمروا كثيرا من الأمم ، فمنهم الأمم المتوحشة التى انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أور با

(١) الخلب : الطين . والثأط : الحمأة . والحرمد : الأسود .

فى العهد القديم كأمة التحيت والسَّمْرِيَانِ والهُون ، وكثيرا ما أغاروا على بلاد الصين وآسيا الغربية التى كانت مقر الأنبياء .

ثم لم يزالوا فى حدود بلادهم لايتجاوزونها بعد زمن النبوة ، إلى أن ظهر فيهم الداهية الرحالة (تموجين) الذى لقب نفسه (جنكيزخان ـ ملك العالم) بلغة المغول ؛ فخرج فى أوائل القرن السابع من الهجرة من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التى فى آسيا الوسطى ، فأخضع الصين الشمالية أولا ، ثم ذهب إلى البلاد الإسلامية فأخضع السلطان قطب الدين بن أرميلان من الملوك السلجوقية ملك خُوَارزْم ، وفعل بهذه الدولة من الفظائع مالم يسمع بمثله فى التاريخ .

ولما مات جنكيزخان قام مقامه ابنه (أقطاى) وأغار ابن أخيه (باتو) على بلاد الروس سنة ٧٢٣ هـ ودمر بولنيا و بلاد المجر وأحرق وخرّب .

و بعد أن مات أقطاى قام مقامه (جالوك) فحارب الروم وألزم ملكها دفع الجزية ثم مات (جالوك) فقام مقامه ابن أخيه (منجو) فكلف أخويه (كيلاى) و (هولاكو) أن يستمرا فى طريق الفتح ، فأخضع كيلاى بلاد الصين ، وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية ، وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله ، فأخذ بغداد عنوة فى أواسط القرن السابع من الهجرة ، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهارا ، وطرحوا كتب العلم فى دجلة وجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم ، وبذلك انتهت الخلافة العباسية ببغداد .

ولما استولت ذرية جنكيزخان على آسيا كلها وأوربا الشرقية ، اقتسموا بينهم ما فتحوه ، وأنشئوا أربع ممالك ، فاختصت أسرة كيلاى بالصين والمغول ، وملك جاغاتاى أخو أقطاى تركستان ، وملكت ذرية باطرخان البلاد التى على شواطئ نهر فلجا ، وصارت الروسيا تدفع لها الجزية زمنا طويلا ، وأخذ هولاكو بلاد الفرس و بغداد حتى بلاد الشام ـ وقد لخصنا ذلك من دائرة المعارف وابن خلدون وابن مسكويه ورسائل إخوان الصفا .

سدّ ذى القرنين

كانت البلاد التى شرقى البحر الأسود يسكنها قوم من الصقالبة (السلاف) وكان هناك سد منيع بالقرب من مدينة (باب الأبواب) أو (در بت) بجبل قوقاف وقد كشفوه فى القرن الحاضر وهو غير السدّ الشهير الذى بناه ذو القرنين ، فإن هذا وراء جيحون فى عمالة (بلخ) واسمه (باب الحديد) بمقربة من مدينة (تِرْمِذ) وقد اجتازه تيمورلنك بجيشه ، ومر به أيضا (شاه روخ) وكان فى بطانته العالم الألمانى (سيلد برجر) وذكر السد فى كتابه وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس عشر ، وكذلك ذكره المؤرخ الأسبانى (كلا فيجو) فى رحلته سنة ١٤٠٣ وكان رسولا من ملك كستيل (قشتاله) بالأندلس إلى تيمورلنك ، وقال إن سد مدينة (باب الحديد) على الطريق الموصل بين سمرقند والهند انتهى ملخصا من مقتطف سنة ١٨٨٨ م .

وبذلك تعلم أن السد موجود فعلا ، وأن هذا معجزة للقرآن الكريم حقا . وهى إحدى المعجزات التى أيدها التاريخ وعلم تقويم البلدان ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «ويل للعرب من شر قد اقترب» وقد صدق رسوله، فأزال هؤلاء المغول دولة العرب وانتهت بقتل المستعصم آخر ملوكها ، وبقى خليفة رسمى فى مصر ، وزال ملكهم بتاتا فى حدود الألف ، وتفرق ملك الإسلام شذر مذر ، ولم تحفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب وقد كوّن أولئك التتار أغلب المسلمين فى الهند والصّين وأغلب آسيا ، فهم كما ورثوا بلادهم ورثوا دينهم .

الإيضاح

(ويسألونك عن ذى القرنين) أى تسألك قريش بتلقين اليهود سؤال اختبار وامتحان .

(قل سأتلو عليكم منه ذكرا) أى قل لهؤلاء المتعنتين : سأقص عليكم قصصا وافيا جامعا لما تريدون ، أعلمنيه ربى وأخبرنى به .

ثم فصل ذلك فقال :

(إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا) أى مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء، بحيث يصل إلى جميع مسالكها، ويظهر على سائر ملوكها، وآتيناه من كل شىء أراده من مهامّ ملكه وبسطة سلطانه طريقا يوصله إليه، فآتيناه العلم والقدرة والآلات التى توصله إلى ذلك.

(فأتبع سببا. حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) أى فأراد بلوغ المغرب فاتبع طريقا يوصله إليه، حتى إذا بلغ منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يمكن تجاوزه، ووقف على حافة البحر المحيط الاطلانطى (المحيط الأطلسى) وجد الشمس تغرب فى عين ذات حمأة وطين أسود.

وخلاصة ذلك — إنه بلغ بلادا لا بلاد بعدها تغرب عليها الشمس، إذ لم يكن عمران إلا ما عرفوه عند بحر الظلمات، فهو قد سار إلى بلاد تونس ثم مرّاكُش ووصل إلى البحر فوجد الشمس كأنها تغيب فيه، وهو أزرق اللون كأنه طين وماء.

(ووجد عندها قوما) أى ووجد عند تلك العين قوما كفارا فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإيمان، وهذا تفصيل قوله :

(قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) أى قلنا له بطريق الإلهام إما أن تقتلهم إن هم لم يقروا بوحدانيتى ويذعنوا لك فيما تدعوهم إليه من طاعتى، وإما أن تأمر بتعليمهم طريق الهدى والرشاد، وتبصيرهم بالشرائع والأحكام.

(قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا) أى قال ذو القرنين لبعض خاصته وبطانته : أما من ظلم نفسه فأصرّ على الشرك بربه فسنعذبه بالقتل ثم يرجع إلى ربه فى الآخرة فيعذبه عذابا منكرا فى نار جهنم.

(وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا) أى وأما من صدّق بالله ووحدانيته وعمل عملا صالحا فى الدارين فله المثوبة الحسنى جزاء وفاقا على تلك الخلال الجميلة التى عملها فى دنياه، وسنعلمه فى الدنيا ما يتيسر لنا

تعليمه مما يقرّبه إلى ربه ، ويلين له قلبه ، ولا يشق عليه فعله مشقة كبيرة كالصلاة والزكاة والجهاد ونحوها .

(ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) أى ثم قفل راجعا من مغرب الشمس وسلك طريقا موصلا إلى مشرقها ، حتى إذا بلغ الموضع الذى تطلع عليه الشمس أوّلا من المعمور ، وجدها تطلع على قوم ليس لهم بناء يكنهم ، ولا أشجار تظلهم وتسترهم عن حر الشمس ، فليس لهم سقوف ولا جبال تمنع من وقوع أشعة الشمس عليهم ، لأن أرضهم لاتحمل بنيانا ، بل لهم سروب يغيبون فيها حين طلوع الشمس ، ويظهرون حين غروبها ، فهم حين طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش ، وحين غروبها يشتغلون بتحصيل مهماتهم ، وأحوالهم على الضد من أحوال الناس .

وخلاصة ذلك — إنه بلغ غاية المعمور من الأرض جهة المشرق ووجد قوما لالباس لهم ولا بناء ، فهم عراة فى العراء أو فى سراديب فى الأرض .

(كذلك) أى إن أمر ذى القرنين كما وصفنا من قبل من بلوغه طرفى المشرق والمغرب ، ومن فعله الأفاعيل التى ذكرت ، فهو قد بلغ الغاية فى رفعة الشأن وبسطة الملك مما لم يتح لكثير غيره .

(وقد أحطنا بما لديه خبرا) أى ونحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا شىء منها وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض كما قال « لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ » .

وخلاصة ذلك — إنه كما وصف وفوق ماوصف بما لا يحيط بعلمه إلا اللطيف الخبير .

(ثم أتبع سببا) أى ثم سلك طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من مطلع الشمس إلى الشمال .

(حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا)

أى حتى إذا وصل بين الجبلين ، (وقد تقدم وصف مكانهما بالتحديد كما رآه السائحون فى القرن الخامس عشر الميلادى) وجد من دونهما أمة من الناس لا يكادون يفهمون كلام أتباعه ولا كلام غيرهم ، لبعد لغتهم عن لغات غيرهم ، مع قلة فطنتهم ، إذ لو كان لهم فطنة لفهموا ما يراد من القول بالقرائن وفحوى الحال .

(قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض) أى قال مترجموهم: إن يأجوج ومأجوج يفسدون أرضنا بالقتل والتخريب وأخذ الأقوات وسائر ضروب الإفساد (تقدم تحقيق القول فى ذلك) .

(فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا و بينهم سدا ؟) أى فهل تحب أن نجعل لك جُعْلا من أموالنا فتجعل بيننا و بينهم حاجزا يمنعهم من الوصول إلينا .

وخلاصة ذلك — إنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لا يعطونه إياه حتى يجعل بينهم و بينهم سدا .

(قال ما مكنى فيه ربى خير) أى قال ذو القرنين : إن ما مكننى فيه ربى من بسطة الملك والسلطان ووفرة المال ـ خير مما تبذلونه لى من الخراج ، فلا حاجة بى إليه ، وهذا نحو ما قاله سليمٰن عليه السلام « أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ » .

والدول القوية يجب أن تحافظ على الدول الضعيفة ، ولا تأخذ منها مالا مادامت قادرة على إغاثتها .

وخلاصة ذلك — ما أنا فيه خير مما تبذلونه .

(فأعينونى بقوة أجعل بينكم و بينهم ردما) أى ولكن ساعدونى بفعلة وصناع يحسنون العمل والبناء ، أجعل بينكم و بين يأجوج ومأجوج سدا منيعا ، وحاجزا حصينا أمنع مما تريدون .

ثم بين تلك القوة التى طلبها فقال :

(آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله

نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا) أى جيئونى بقطع الحديد ، فلما جاءوه بها أخذ يبنى شيئا فشيئا حتى إذا جعل ما بين جانبى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى العلو، قال للعملة : انفخوا بالكيران فى زبر الحديد التى وضعت بين الصدفين ففعلوا ، وما زالوا كذلك حتى صارت كالنار اشتعالا وتوهجا ، فصب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض ، وسد الفجوات التى بين الحديد وصار جبلا صلدا .

(فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) أى إن يأجوج ومأجوج ما قدروا أن يصعدوا من فوق السد لارتفاعه وملاسته ، ولا استطاعوا نقبه لصلابته وثخانته .

(قال هذا رحمة من ربى) أى قال ذو القرنين لأهل تلك الديار : هذا السد نعمة من الله ورحمة بعباده ، إذ صار حاجزا بينهم وبين يأجوج ومأجوج يمنعهم من أن يعيثوا فى الأرض فسادا .

(فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء) أى فإذا دنا وقت خروجهم من وراء السد جعله ربى بقدرته وسلطانه أرضا مستوية ، فسلط عليهم منهم أو من غيرهم من يهدمه ويسوى به الأرض .

(وكان وعد ربى حقا) أى وكان كل ما وعد به سبحانه حقا ثابتا لا ريب فى تحققه ، وقد جاء وعده تعالى بخروج جنكيزخان وسلائله نعاثوا فى الأرض فسادا من الشرق والغرب وفعلوا الأفاعيل بالدولة الإسلامية ، وأزالوا معالم الخلافة من بغداد كما علمت ذلك فيما سلف .

وقد ذكر المؤرخون أن سبب خروج جنكيزخان أن سلطان خُوَارَزْم السلجوقى قتل رسله وتجاره المرسلين من بلاده ، وسلب أموالهم وأغار على أطراف بلاده ، فاغتاظ ، وكتب إلى السلطان كتابا قال فيه : كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى ، وأخذتم تجارتى ومالى ... أتحركون الفتنة النائمة

وتنبهون الشرور الكامنة ... أو ما جاءكم عن نبيكم ، (وعليكم أن تمنعوا من السفاهة غنيَّكم ، وعن ظلم الضعيف غويَّكم) أومابلغكم عنه مرشدوكم ، اتركوا الترك ما تركوكم ، وكيف تؤذون الجار ، و تسيئون الجوار . ونبيكم قد أوصى به ... ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها ، وهذه وصاياى إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا التلف قبل أن ينهض داعى الانتقام ، وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج ، وسينصر الله المظلوم ولينسلنّ عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب اه ملخصا .

روى البخارى عن أم حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول « لا إله إلا الله و يل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بإصبعه الابهام والتى تليها ، قالت زينب فقلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ، فقال نعم إذا كثر الخبث » .

ولقد اتسع ذلك الفتح من هذا التاريخ شيئا فشيئا حتى فتح عن آخره فى القرن السابع الهجرى ، وخرج هؤلاء القوم كما قدمنا وقد عثر على آثاره كما علمت فيما سلف .

(وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) أى ويوم يدك السد يخرج هؤلاء من ورائه يموجون فى الناس ، ويفسدون عليهم زروعهم و يتلفون أموالهم ، وهذا بمعنى قوله فى سورة الأنبياء : « حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ » أى وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون فى النزول من الآكام والمرتفعات ، وتلك حال تنطبق على قوم جنكيزخان ، فقد كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى ، كما تقدم نقلا عن مؤرخى العرب والإفرنج .

كل هذا قبل النفخ فى الصور بزمن مجهول غير معلوم .

(ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا) أى فإذا دنا ميقات الساعة نفخ فى الصور وجمعنا الناس جمعا ، وأحضرناهم للحساب كما قال : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » وقوله: «وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا».

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) .

شرح المفردات

عرضنا : أى أظهرنا وأبرزنا ، غطاء : أى غشاوة محيطة بها ، عن ذكرى : أى عن الآيات الموصلة إلى ذكرى بتوحيدى وتمجيدى ، أولياء : أى معبودات يقونهم بأسى ، أعتدنا : أى هيأنا ، نزلا : أى طعاما يتمتعون به حين ورودهم إلى ربهم ، ولقائه : أى حين البعث والحشر وما يتبع ذلك ، الهزؤ : السخرية والاحتقار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة ينفخ فى الصور لجمع الخلائق وقيامهم من قبورهم بعد أن تقطعت أوصالهم وتمزقت أجسامهم ، ويجمعهم فى صعيد واحد للحساب والجزاء ـ قفى على ذلك ببيان أنه إذ ذاك يبرز النار للكافرين بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا ، وفى ذلك تعجيل الهم والحزن لهم ، من قِبَل أنهم تعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق وحسبوا أن اتخاذهم أولياء من دون الله ينجيهم

من عذابه ، وأن ما عملوه من تلك الأعمال الباطلة نافع لهم ، وكل ذلك وهم وخيال فلا فائدة منه فى ذلك اليوم ، ولا نقيم له إذ ذاك وزنا .

روى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم قرنه ، وحنى الجبهة وأصغى الأذن ، متى يؤمر أن ينفخ ؟ ولو أن أهل مِنًى اجتمعوا على القرن أن يقلوه من الأرض ما قدروا عليه ، قال : فأَبلس (يئس وتحير) أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشق عليهم ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » والحديث يشير إلى قرب الساعة وأنها أوشكت تجىء .

الإيضاح

(وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) أى وأبرزنا جهنم يوم ينفخ فى الصور وأظهرناها للكافرين بالله حتى يروا أهوالها وشديد نكالها ويسمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وفى هذا تعجيل للهمّ والحزن ومعرفة أنهم مواقعوها ، ولا يجدون عنها مصرفا .

ثم بين أوصافهم التى استحقوا بها هذا الجزاء فقال :

(الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا) أى إن هذا العذاب إنما نالهم من جرّاء أنهم كانوا لا ينظرون فى آيات الله فيتفكروا فيها ولا يتأملون حججه فيعتبروا بها وينيبوا إلى ربهم وينقادوا لأمره ونهيه ، وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله الذى ذكرهم به ، وبيانه الذى بيّنه لهم فى آى كتابه ، فتغافلوا وتعاموْا وتصامّوا عن قبول الهدى واتباع الحق كما قال : « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

ذاك أنهم لما دنسوا أنفسهم باجتراح المعاصى والآثام ، وأطاعوا وساوس الشيطان وما نصبه لهم من الحبائل ، طبع الله على قلوبهم وجعل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .

ثم بين أن ما اعتمدوا عليه من المعبودات الأخرى لايجديهم نفعا فقال :

(أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء) أى أفظن الذين كفروا بى واتخذوا عبادى الذين هم فى قبضتى وتحت سلطانى كالملائكة وعيسى ـ معبودات من دونى ـ أظنوا أن ذلك يجديهم نفعا أو يرفع عنهم ما يحل بهم من النكال والوبال .

وخلاصة هذا — أظنوا أن ذلك الاتخاذ ينفعهم ، وأنه لايغضبنى ـ كلاّ .

ثم أكد هذا الإنكار بقوله :

(إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) أى إنا هيأنا لهؤلاء الكافرين جهنم عوضا مما أعدوه لأنفسهم من الأولياء الذين اتخذوهم زادا ليوم المعاد .

والخلاصة — إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العُدّة والذُّخْر ـ عدة هى جهنم و بئس المصير .

وفى ذلك تهكم بهم وتخطئة لهم فى حسبانهم ذلك ، وإيماء إلى أن لهم وراء جهنم ألوانا أخرى من العذاب ، وما جهنم إلا أنموذج منه .

ثم ذكر سبحانه ما فيه تنبيه إلى جهلهم فقال :

(قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يجادلونك بالباطل من أهل الكتابين اليهود والنصارى : هل نخبركم بالذين أتعبوا أنفسهم فى عمل يبغون به ثوابا وفضلا فنالوا به هلاكا و بوارا كالمشترى سلعة يرجو بها ربحا فخاب رجاؤه وخسر بيعه ووكس فى الذى رجا فضله .

وخلاصة ذلك — إنهم عملوا بغير ما أمرهم به الله ، وظنوا أنهم بفعلهم هذا مطيعون له ، وأنهم يحسنون صنعا ، ثم استبان لهم أنهم كانوا مخطئين ، وفى ضلال مبين ، وأن سعيهم الذى سعوا فى الدنيا ذهب هباء ، فلم يجدهم نقيرا ولا قطميرا .

ثم بين السبب فى بطلان سعيهم فقال :

(أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أى إن هؤلاء الأخسرين أعمالا هم الذين كفروا بالدلائل المنبثة فى الآفاق والأنفس التى تدعو إلى توحيده، وكفروا بالبعث والحساب وما يتبع ذلك من أمور الآخرة، ومن ثم حبطت أعمالهم، فلم يكن لها ثواب ينفع أصحابها، بل لهم منها عذاب وخزى طويل، ولا نثقل بها موازينهم، لأن الموازين إنما تثقل بالأعمال الصالحة وليس لهم منها شىء .

ثم بين مآلهم بسبب كفرهم وسائر معاصيهم إثر بيان أعمالهم المحبطة بذلك الكفر فقال :

(ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) أى إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم رسل الله ومعجزاتهم التى أظهرها على أيديهم هزؤا وسخرية، فلم يكتفوا بالكفر بها، بل ارتكبوا هذه الحماقة التى هى أعظم أنواع الاحتقار .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) .

شرح المفردات

الفردوس: البستان بالرومية . وقال السدى: إنه الكرم بالنبطية وأصله فرداسا، حولا : أى تحولا ، والمداد : مايمد به الشىء ؛ واختص بما تمد به الدواة من الحبر ،

كلمات ربى : معلوماته غير المتناهية ، والرجاء : طمع حصول ما فيه مسرة مستقبلة ، ولقاء ربه : هو البعث وما يتبعه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعده للكفار من العذاب فى جهنم ، وأن ذلك كان جزاء بما كفروا بربهم واستهزائهم برسله وآياته ـ أردف ذلك بما يرغب المؤمنين فى العمل الصالح من جنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء وفاقا على إنابتهم إلى ربهم وإخباتهم إليه ، ثم ختم السورة ببيان حال القرآن الذى ذكر فيه الدلائل والبينات على وحدانيته وإرسال الرسل والبعث والجزاء مما يدل على عظيم فضله ، ثم أعقب ذلك ببيان أن العمل لايتقبل إلا إذا صاحبه أمران : أن يكون خالصا لوجهه تعالى ، وأن يكون مبرأ من الشرك الخفىّ والجلىّ .

روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من سمّع سمّع الله به ، ومن يرائى يرائى اللهُ به » أى من عمل عملا مراءاة للناس ، وليشتهر به شهّره الله يوم القيامة .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه » .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) أى إن الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به وعملوا صالح الأعمال ابتغاء المثوبة من ربهم ـ لهم بساتين الفردوس فى أعلى الجنة وأوسطها منزلا .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس ، فإنها أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى ومنه تفجر الأنهار » .

(خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) أى لابثين فيها أبدا لايبغون عنها تحولا إلى غيرها ، قال ابن عباس : لايريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى .

وخلاصة هذا — إنه لا مكان أعز منها عندهم ، ولا أرفع شأنا حتى تنازعهم إليه أنفسهم ، وتطمح إليه أبصارهم ، ثم نبه إلى عظيم شأن القرآن بقوله :

(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) أى قل لهم أيها الرسول : لو كان ماء البحر مدادا للقلم الذى تكتب به كلمات ربى وعلومه لنفد ماء البحر قبل أن تنفد تلك الكلمات ، ولو مددنا ماء البحر بمثل مافيه من الماء مددا وعونا ، لأن مجموع المتناهيين متناه ، وعلوم الله وحكمته لا نهاية لها ، والمتناهى لايفى البتة بغير المتناهى ، ونحو الآية قوله « وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَانَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ » .

روى أن اليهود قالوا يامحمد : تزعم أننا قد أوتينا الحكمة ، وفى كتابك « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا » ثم تقول « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » يريدون بذلك الاعتراض بوجود التناقض فأنزل الله الآية ردا عليهم .

وقد أثبت العلم الحديث مايتبين منه أن فى كل عالم من العوالم الأرضية والسماوية ما لا يحصى من النعم على عباده ، وعليك أن تلقى سمعك إلى آخر الآراء التى اهتدى إليها العلماء فى العصر الحاضر .

قال الأستاذ جينس الإنكليزى المدرس لعلوم الرياضيات التطبيقية فى جامعة (بنسلفانيا) بأمريقا فى ٧ من مارث ١٩٢٨ وهى أحدث الآراء فى منشأ الكائنات وعدم التناهى فى الزمان والمكان . ما خلاصته :

(١) إن عمر الأرض نحو ألفى مليون سنة .

(٢) إن الإنسان لم يمش على الأرض إلا منذ ثلثمائة ألف سنة فحسب .

(٣) إن الشمس ستظل بعد ألف ألف مليون سنة كما هى الآن تقريبا ، وتدور الأرض حولها كما هى الآن .

(٤) الإنسان فى المستقبل يكون أحكم من الإنسان الحاضر بثلاثة ملايين مرة على الأقل ، فسينظم معيشته على وفق حال الكرة الأرضية إذ ذاك .

(٥) مما تقدم نعلم أن الإنسان حديث العهد بالولادة على الأرض ، فهو طفل فى علومه ومعارفه ، وكل هم هذا الطفل كان موجها إلى غذائه ومسكنه ، وهو يجهل العوالم الأخرى ، ولكنه الآن عرف أن هناك عوالم أخرى لا نهاية لها ، وأن معرفته بها تافهة جد التفاهة ، وربما عاش بعد الآن ألفى مليون سنة على الأرض ، وبعبارة أخرى إنه يعيش مدة تعادل عمر الأرض فى الماضى .

(٦) الأجرام التى حولنا لها نهاية ، أما الفضاء الذى بعدها فلا نهاية له ، فالشمس والكواكب والمجرات لها نهاية ، ولكن وراءها فضاء لا نهاية له .

(٧) الأجرام العلوية التى نراها والتى لا نراها كرية الشكل كقطرة الماء وكرة الأرض والشمس .

(٨) الإشارات اللاسلكية تنبعث من جهاز لاسلكى كبير تدور حول الكرة الأرضية فى أقل من سبع ثانية ، وتعود إلى النقطة التى بدأت منها ، وهكذا نحن لو اخترقنا هذه العوالم رجعنا إلى مبدإ سفرنا .

(٩) إننا لو صنعنا منظارا قويا (تلسكوبا) لنرى الأجرام السماوية ، رأينا النجوم بهيئتها التى كانت عليها حينما أرسلت إلينا النور قبل ملايين السنين .

(١٠) إن الإنسان اليوم طفل فى العلوم ، وربما علم فى المستقبل ما لا يتخيله الآن .

(١١) إن سرعة النور فى الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، ومثله فى ذلك

الكهرباء اللاسلكية ، لأنهما شيء واحد فى جوهرهما ، ويرجح أن النور يسير حول الفضاء الكروى مائة ألف مليون سنة ، أى إن النور يدور فى هذا العالم المملوء بالأجرام العلوية الذى مجموعه كرة واحدة مدة مائة ألف مليون سنة مع العلم بأنه يدور حول الأرض فى سبع ثانية ، فما أبعد النسبة بين سبع ثانية ، و بين مائة ألف مليون سنة .

إلا أن الأرقام لاتقدر أن تحصى المسافة المحصورة بين أى نقطتين كانتا على محيط الفضاء الكروى .

(١٢) الشمس أكبر من الأرض حجما بمليون وثلثمائة ألف مرة ، وما هى إلا حبة رمل على شاطئ هذا الفضاء الكروى ، وهى واحدة من أسرة من أسر الكائنات التى فى الفضاء الكروى التى قدرها العلامة (سيرز) بثلاثين ألف مليون مجموعة ، وشمسنا وتوابعها حبة رمل فى مجموعة واحدة من هذه الثلاثين ألف مليون مجموعة .

(١٣) إن هناك سُدُما لولبية فى خارج المجرة ، وهى مجموعة من النجوم التى تم نشوءها أو لاتزال فى طور التكوين ، وفى بعضها من المادة ما يكفى لخلق ألف مليون شمس كشمسنا .

(١٤) يقول (هويل) إن مرقب (تلسكوب) مونت ويلسون بأمريقا يريك نحو مليونين من تلك السدم ، وإذا تمكن الإنسان من صنع مرقب أكبر من هذا فإنه يرى بلا شك ملايين كثيرة أخرى منها ، ونها من المادة مايكفى لخلق ملايين الشموس والأجرام الفلكية ، ويقول : إذا أردت أن تعرف عدد النجوم التى تسبح فى الفضاء على وجه التقريب ، فضع رقم ٢ وعلى يمينه ٤٤ صفرا ، وهذا العدد يغطى الجزائر البريطانية إلى عمق مئات من الأمتار .

(١٥) أضعف النجوم المعروفة هى نجم (وونف) ونوره جزء من عشرين جزءا من نور الشمس ، ونور النجم (دورادوس) يساوى ثلثمائة ألف ضعف بالنسبة للنور المنبثق من الشمس .

وأصغر النجوم هو نجم (فان مانن) وحجمه كحجم الأرض ، وأكبر النجوم الجوزاء ، وهى أكبر من الشمس خمسا وعشرين مليون مرة ، ونسبة نورها إلى نور الشمس كنسبة نور المصابيح الكهربائية إلى نور حشرة (الحباحب) .

(١٦) إن الشمس تخرج أشعة تعادل قوتها خمسين حصانا من كل بوصة مربعة وبعض النجوم التى هى أعظم من الشمس تشعّ نورا من البوصة المربعة يساوى قوة ثلاثين ألف حصان لكل بوصة مربعة .

(١٧) إن الشمس تفقد كل يوم من المادة بسبب خروج الأشعة منها ما يساوى ٢٥٠ مليون طن فى الدقيقة ، ففى اليوم تفقد ٣٦٠ ألف مليون طن .

(١٨) يظن أن عمر الشمس الآن عشرة آلاف ألف مليون سنة ، ويمكن أن تعيش ملايين السنين دون أن تنطفىء .

(١٩) عمر الأجرام الفلكية يختلف من خمسة آلاف ألف مليون سنة إلى عشرة آلاف ألف مليون سنة اه .

هذه آراء علماء الفلك فى العصر الحاضر استنبطوها بالحساب تارة ، وبوجه التقريب تارة أخرى ، مما يرشد إلى تفسير قوله تعالى : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى) الآية .

فهذه هى الكلمات الإلهية التى أدهشت الألباب ، وضاعت الأعمار فى البحث عن علم شىء منها ، ولا يزال الناس فى عماية من أمرها ، ولم يصلوا إلا إلى معرفة القليل كما قال : « وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » .

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلٰهكم إله واحد) أى قل لهم أيها الرسول : إنما أنا بشر مثل ما أنتم كذلك ، ولا أدعى الإحاطة بكلمات الله جلت

قدرته ، ولا علم لى إلا ما علمنى ربى ، وأن الله أوحى إلىّ أن معبودكم الذى يجب أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ـ هو معبود واحد لاثانى له ولا شريك .

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) أى فمن كان يطمع فى ثواب الله على طاعته فليخلص له العبادة ، وليفرد له الربوبية ولا يشرك به سواه ، لا إشراكا جليا كما فعل الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، ولا إشراكا خفيا كما فعل أهل الرياء ممن يطلب بعمله الدنيا ، وهذا هو الشرك الأصغر كما صح فى الحديث ، وروى مستفيضا فى الأخبار من أن كل عمل أريد به الدنيا لايقبل ، فقد أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه قال : « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه وهو للذى أشرك » نسأل المولى القدير أن يجعل عملنا خالصا لوجهه ، لايراد به رضا أحد من خلقه .

إجمال ما تضمنته السورة من الأغراض والمقاصد

(١) وصف الكتاب الكريم بأنه قيم لاعوج فيه ، جاء للتبشير والإنذار .

(٢) ما جاء على ظهر الأرض هو زينة لها ، وقد خلقه الله ابتلاء للإنسان ليرى كيف ينتفع به .

(٣) ما جاء من قصص أهل الكهف ليس بالعظيم إذا قيس بما فى ملكوت السموات والأرض .

(٤) وصف الكهف وأهله ، مدة لبثهم فيه ، عدد أهله .

(٥) أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالجلوس مع فقراء المؤمنين وعدم الفرار منهم إلى أغنيائهم إجابة لدعوتهم .

(٦) ذكر ما يلاقيه الكفار من الوبال والنكال يوم القيامة .

(٧) ضرب مثل يبين حال فقراء المؤمنين وأغنياء المشركين .

(٨) ضرب المثل لحال الدنيا .

(٩) عرض كتاب المرء عليه فى الآخرة وخوف المجرمين منه .

(١٠) عداوة إبليس لآدم و بنيه .

(١١) قصص موسى والخضر .

(١٢) قصص ذى القرنين وسد يأجوج ومأجوج ، وكيف صنعه ذو القرنين .

(١٣) وصف أعمال المشركين وأنها ضلال وخيبة فى الآخرة .

(١٤) ما يلقاه المؤمنون من النعيم فى الآخرة .

(١٥) علوم الله تعالى لانهاية لها .

سورة مريم

هى مكية إلا آيتى ٥٨ ، ٧١ فمدنيتان ، وعدد آيها ثمان وتسعون .

ومناسبتها لسورة الكهف اشتمالها على نحو ما اشتملت عليه من أعاجيب القصص كقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِنْ وَرَائِى وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِى آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) .

شرح المفردات

زكريا (يمد ويقصر) من ولد سليمان بن داود عليهم السلام وكان نجارا ، نادى ربه : أى دعاه ، خفيا : أى مستورا عن الناس لم يسمعه أحد منهم ،

وهن العظم : ضعف ورق من الكبر: إذ قد بلغ خمسا وسبعين سنة أو ثمانين، واشتعل الرأس شيبا : أى صار الشيب كالنار والشعر كأنه الحطب ، ولقوتها وشدتها أحرقت الرأس نفسه ، شقيا؛ يقال شقى بكذا : أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه والمراد أنه خائب غير مستجاب الدعوة ، الموالى : هم عصبة الرجل ، من ورائى: أى من بعدى؛ ويقال رجل عاقر وامرأة عاقر إذا كانا عقيمين، وليا : أى ولدا من صلبى ، ويعقوب: هو يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم وكان متزوجا أخت مريم بنت عمران من ولد سليمان عليه السلام ، رضيا : أى مرضيا عندك قولا وفعلا ، سميا : أى شريكا له فى الاسم؛ فلم يسم أحد بهذا الاسم قبله ، وهذا دليل على أن الأسماء الشُّنْع ـ الشريفة ـ جديرة بالأثرة وإياها كانت العرب تنتحى فى التسمية كما قال قائلهم فى المدح :

شُنْع الأسامى مُسْبِلى أزر حمر تمس الأرض بالهَدْب

أنَّى : أى كيف ، عتيا من عتا يعتو : أى يبست مفاصله وعظامه ، شيئا : أى موجودا ، آية : أى علامة ، سويا : أى سوىّ الخلق سليم الجوارح ليس به بكم ولا خرس ، المحراب المُصلَّى ، أوحى : أى أومأ وأشار ، سبّحوا : أى صلوا ، بكرة وعشيا ، أى صلاة الفجر وصلاة العصر .

المعنى الجملى

روى محمد بن إسحاق فى السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ـ أن جعفر بن أبى طالب قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه .

الإيضاح

(كٓهيعٓصٓ) تقدم الكلام فى المراد من أوائل السور ، وأن المختار أن المقصود بها التنبيه كحروف التنبيه التى تقع أول الكلام نحو ألا ويا وغيرها ، وتقرأ بأسمائها فيقال (كاف . ها . يا . عين . صاد) .

(ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفيا) أى مما نقصّ عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا حين دعا ربه دعاء خفيا مستورا عن أعين الناس.

وإنما أخفى دعاءه لأنه أدل على الإخلاص وأبعد من الرياء وأقرب إلى الخلاص من لائمة الناس على طلب الولد وقت الكبر والشيخوخة.

وقصارى ذلك — إن فى هذه السورة ذكر الرحمة التى رحم الله بها عبده زكريا حين أسرّ بدعائه إليه.

ثم فصل كيفية دعائه بقوله:

(قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا. وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا) أورد زكريا عليه السلام قبل سؤاله أمورا ثلاثة، كل منها يستحق الرحمة والشفقة:

(١) ضعفه ظاهرا وباطنا، وأثر الأول قد ظهر فى العظام التى هى حاملة سائر الأعضاء، ومتى وصل إليها الضعف كان ضعف ماعداها أولى وأجدر، وأثر الثانى واضح باستيلاء الشيب على الرأس واضطرامه فى السواد كما قال ابن دريد:

إما ترى رأسى حاكى لونه ... طرّة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيضّ فى مسودّه ... مثل اشتعال النار فى جمر الغضا

(٢) إنه مارُدّ دعاؤه ولا خاب استعطافه حينا من الدهر، بل كان كلما دعا استجيب له، وهو فى هذه الحال أجدر بالإجابة لضعفه وشيخوخته، وفى هذا إشارة إلى لطف الله به وعظيم فضله عليه مدى حياته.

وقد روى التاريخ أن معن بن زائدة أتاه سائل فقال من أنت؟ قال أنا الذى أحسنتَ إليه حين كذا، قال مرحبا بمن توسل بنا إلينا وقضى حاجته.

(٣) إن فى إجابة الطلب منفعة دينية، إذ أنه خاف أن الموالى أى الورثة الذين يخلفونه فى إقامة الشعائر الدينية — لايؤدون مايجب عليهم نحو الدين من نشره وتبليغه للناس وعبادة الله كما أمر، والذبّ عنه إذا جد الجد ووجب الدفاع عنه،

فقد أثر عنهم أنهم كانوا من شرار بنى إسرائيل نخافهم ألا يحسنوا خلافته فى أمته لا فى الدين ولا فى المال ولا فى السياسة التى تتبع فى إدارة شؤونها.

وقد عرف زكريا عليه السلام ببعض الأمارات أن عصبته وهم إخوته و بنو عمه ربما استمروا على عادتهم فى الشر والفساد نخافهم على الدين أن يغيروه ، وألا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقبا من صلبه يقتدى به فى إحيائه ، وينهج نهجه فيه فقال :

(فهب لى من لدنك وليا. يرثنى و يرث من آل يعقوب[1] واجعله رب رضيا) أى أعطنى من واسع فضلك وعظيم جودك وعطائك لا بطريق الأسباب العادية ولدا من صلبى ، يرث الحبورة منى و يرث من بنى ماثان ملكهم (قال الكلبى كان بنو ماثان رءوس بنى إسرائيل وملوكهم ، وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذ) و يكون برا تقيا مرضيا عندك وعند خلقك ، تحبه و يحبونه لدينه وخلقه ومحاسن شيمه .

ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران حكاية عنه «قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » وقوله فى سورة الأنبياء « وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ » .

ثم أخبر سبحانه أنه أجاب دعاءه وتولى تسمية الولد بنفسه فقال :

(يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) أى فاستجاب دعاءه وقال : يازكريا إنا نبشرك بهبتنا لك غلاما اسمه يحيى (معرّب يوحنا ، وفى إنجيل متى أنه يدعى يوحنا المعمدانى لأنه كان يعمد الناس فى زمانه) لم يسم أحد من قبله بمثل اسمه .

ثم ذكر جواب زكريا عند هذه البشرى مظهرا التعجب مما سمع :

(قال رب أنّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا؟) أى ومن أىّ وجه يكون لى ذلك وامرأتى عاقر لاتحبل ، وقد ضعفتُ من الكبر

(١) هو يعقوب بن ماثان وأخوه عمران بن ماثان والد مريم .

عن مباضعة النساء : أبأن تقوّينى على ماضعفت عنه من ذلك ، وتجعل زوجى ولودا وأنت القادر على ما تشاء ، أم بأن أتزوج زوجا غير تلك العاقر ؟

وخلاصة ذلك — إنه يستثبت ربه الخبر عن الوجه الذى يكون من قبله الولد الذى بشره به ، لا إنكارا منه لذلك ، وكيف يكون منه الإنكار لذلك وهو المبتدئ مسألة ربه به بقوله : فهب لى من لدنك وليا .

وإجمال المعنى — إنه تعجب حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ، ففرح فرحا شديدا وسأل عن الوجه الذى يأتيه منه الولد ، مع أن امرأته عاقر لم تلد من أول عمرها ، والآن قد كبرت وهو قد كبر وعتا : أى يبس عظمه ونحل ولم يبق له قدرة على قربان النساء ، وكأنه يقول : إنى حين كنت شابا وكهلا لم أرزق الولد لاختلال أحد السببين وهو عقم المرأة ، أفحين اختل السببان أرزقه ؟

(قال كذلك) أى قال الله تعالى : الأمر كما قلت ، فسنهب لك الولد مع ما أنتما عليه من العقم والشيخوخة .

ثم علل هذا بقوله :

(قال ربك هو علىّ هين) أى قال ربك الذى عوّدك الإحسان : خلق ولد منكما على هذه الحال هين ، فإنى إذا أردت شيئا كان دون توقف على الأسباب العادية التى رسمتها للحمل والولادة .

ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال :

(وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) أى وليس خلق الغلام الذى وعدتك أن أهبه لك مع كبر سنك وعقم زوجك بأعجب من خلق البشر جملة من العدم ، فإن خلق آدم ماهو إلا أنموذج لسائر أفراد الجنس مستتبع لجريان آثاره عليه ، فإبداعه عليه السلام على هذا النمط إبداع لجميع أفراد ذريته ، والقادر على خلق الذوات والصفات من العدم المحض يكون أجدر بالقدرة على تبديل الصفات بخلق الولد من الشيخ والشيخة .

وخلاصة ذلك — إن من قدر على خلق الذوات والصفات والآثار من العدم، أجدر به أن يكون قادرا على تبديل الصفات ، فيعيد إليه و إلى زوجه القوة وسائر الوسائل التي بها يمكن أن ينشأ منهما الولد كما قال « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ » .

ثم أخبر سبحانه أن زكريا تاقت نفسه إلى سرعة وجود المبشر به ، ليطمئن قلبه بما وعد به كما قال إبراهيم من قبله « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » فقال حاكيا عنه .

(قال رب اجعل لى آية) أى قال رب اجعل لى علامة تدلنى على تحقق المسئول فى زمن معين . إذ كانت البشارة غير مقيدة بوقت ، والحمل خفى فى مبدئه ولا سيما ممن انقطع حيضها لكبرها — إلى أنه أراد أن يطلعه على ذلك ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر حين حدوثها .

ثم بين أنه أجابه إلى مطلبه فقال :

(قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) أى علامتك على وجود المبشر به وحصول الحمل ، ألا تقدر على تكليم الناس بكلامهم المعروف فى محاوراتهم ثلاث ليال وأنت صحيح سوىّ الخلق سليم الجوارح ليس بك علة ولا مرض .

وجاء فى سورة آل عمران « قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا » .

(فخرج على قومه من المحراب) أى فخرج غبّ إعلام الله له بهذه الآية على قومه من المحراب (وهو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ؛ وهو مقصورة فى مقدم المعبد لها باب يصعد إليه بسلم ذى درج قليلة يكون من فيه محجوبا عمن فى المعبد) منقع اللون منطلق اللسان بذكر الله منحبسه عن كلام الناس (وقد كانوا ينتظرون أن يفتح لهم الباب إذ كان من عادتهم أن يصلوا معه صلاتى الغداة والعشى فى محرابه) فقالوا مالك يانبى الله ؟.

(فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) أى فأومأ إليهم وأشار كما جاء فى الآية الأخرى « إِلاَّ رَمْزًا » أى سبحوا الله ونزهوه عن الشريك والولد، وعن كل نقص طرفى النهار .

وقد كان أخبرهم بما بشر به قبل وجود الآية ، فلما تعذر عليه الكلام أشار إليهم بحصول ما بشر به من ذلك الأمر العجيب فى مجرى العادة فسرّوا به .

فلما ولد و بلغ سنا يؤمر فيه مثله قلنا :

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) .

شرح المفردات

الكتاب: هو التوراة ، والقوة: الجد والاجتهاد، والحكم والحكمة: الفقه فى الدين، وحنانا : أى عطفا على الناس ، وزكاة: أى طهارة من الذنوب والآثام ، تقيا: أى مطيعا لأمر ربه منتهيا عما نهى عنه، وبرا بوالديه : أى كثير البر والإحسان إليهما ، جبارا: أى متعاليا عن قبول الحق والإذعان له، عصيا: أى مخالفا أمر مولاه ، سلام: أى أمان من الله عليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دعاء زكريا ربه أن يهبه غلاما سريا ، وذكر أنه أجاب طلبه وجعل لذلك أمارة يعلم منها وقت الحمل به ــ ذكر هنا أنه بعد أن ظهر ذلك المولود إلى عالم الوجود وترعرع ونما ، أمره بالجد والعمل لطاعته ، وجعله طاهرا برّا بوالديه لا يعصى أوامر ربه ولا يتعالى عن قبول الحق .

الإيضاح

(يايحيى خذ الكتاب بقوة) أى خذ التوراة التى هى نعمة الله على بنى إسرائيل بجدّ واجتهاد وحرص على العمل بها .

ثم وصفه الله بصفات كلها مناهج للخير ووسائل للطاعة فقال :

(١) (وآتيناه الحكم صبيا) أى وأعطيناه الحكمة والفقه فى الدين والإقبال على الخير وهو صغير لم يتم سبع سنين ، روى أن الغلمان قالوا له يوما : هيّا بنا نلعب ، قال : مااللعب خلقنا ، اذهبوا بنا نصلى .

(٢) (وحنانا من لدنا) أى وجعلناه ذا حنان وشفقة على الناس وحسن نظرٍ فيما وليه من الحكم فيهم ، وقد وصف الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمثل هذا فى قوله « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ » وقوله « حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

(٣) (وزكاة) أى طهارة من الدنس و بعدا من اجتراح الذنوب والآثام .

(٤) (وكان تقيا) أى مطيعا لما به أمر وعنه نهى ، فلم يفعل معصية ولاهمّ بها.

(٥) (و برا بوالديه) أى كثير البر بهما والإحسان إليهما والحدب عليهما بعيدا عن عقوقهما قولا وفعلا ، وقد جعل الله طاعة الوالدين فى المرتبة التى تلى مرتبة طاعته فقال : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » .

(٦) (ولم يكن جبارا) أى لم يكن متكبرا على الناس ، بل كان لين الجانب متواضعا لهم ، وقد أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمثل هذا فى قوله : « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » ووصفه بقوله : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » ومن ثم لما تجبر إبليس وتمرد صار مبعدا من رحمة ربه .

(٧) (عصيا) أى مخالفا لما أمره ربه .

ثم ذكر سبحانه جزاءه على ما قدم من عمل صالح وأسلف من طاعة ربه فقال : (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) أى وتحية من الله عليه أول ما يرى الدنيا ، وأول يوم يرى فيه أمر الآخرة ، وأول يوم يرى فيه الجنة والنار.

وإنما خص هذه المواضع الثلاثة ، لأن العبد أحوج ما يكون إلى رضا ربه فيها لضعفه وحاجته وقلة حيلته وافتقاره إلى رحمة ربه ورأفته به .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا(١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) .

شرح المفردات

انتبذت : أى اعتزلت وتنحت ، مكانا شرقيا : أى شرقى بيت المقدس ، حجابا : أى ساترا توارت به منهم ، روحنا : هو جبريل عليه السلام ، سويا : أى سوىّ الخلق كامل البنية ، أعوذ : أى أعتصم وألتجئ ، تقيا : أى مطيعا ، لأهب لك : أى لأكون سببا فى هبته ، غلاما : أى ولدا ذكرا ، زكيا : أى طاهرا من الأدناس والأرجاس ، أنّى : أى كيف يكون ذلك ؟ آية : أى علامة على قدرة خالقكم ، مقضيا : أى محتوما قد تعلق به قضاؤنا الأزلى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص زكريا عليه السلام وأنه أوجد منه فى حال كبره وعقم زوجه ولدا زكيا مباركا - أردف ذلك بذكر قصص مريم وأنه أنجب منها ولدا من غير أب ، وبين القصصين مناسبة ظاهرة ، ومن ثم ذكرهما مقترنين فى سورة آل عمران وهنا وفى الأنبياء ، وبدأ بقصة يحيى لأن خلق الولد من شخصين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من خلق الولد بلا أب ، ثم ثنى بقصة عيسى لأنها أغرب من تلك .

ومن حسن طرق التعليم والتفهيم التدرج بالانتقال من الأقرب منالا إلى أصعب منه ، وهكذا صُعُدا .

الإيضاح

(واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا) أى واتل أيها الرسول فى كتاب الله الذى أنزله إليك بالحق ، قصص مريم بنة عمران حين اعتزلت من أهلها وانفردت عنهم إلى مكان شرقى بيت المقدس لتتخلى للعبادة .

وعن ابن عباس أنه قال : إنى لأعلم خلق الله لأى شىء اتخذ النصارى المشرق قبلة ، لقول الله عز وجل : « إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا » فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة .

(فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) أى فاتخذت من دون أهلها سترا يسترها عنهم وعن الناس ، فأرسلنا إليها جبريل عليه السلام ، فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق ليعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، إذ ربما يشتبه عليها الأمر فتقتل نفسها أسًى وغما ، وإنما مثل لها بهذا المثال لتأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته ، ولأنه لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع محاورته .

ثم حكى عنها سبحانه ما قالته حينئذ فقال :

(قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) أى فلما رأته فزعت منه وقالت إنى أستجير بالرحمن منك أن تنال منى ماحرم الله عليك إن كنت ذا تقوى له ، تتقى محارمه وتجتنب معاصيه ، فمن يتق الله يجتنب ذلك .

وإجمال المعنى — إنه لما تبدى لها فى صورة البشر وهى فى مكان منفرد ، وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريدها على نفسها فقالت : إنى أعوذ بالله منك إن كنت تخافه — وقد فعلت المشروع فى الدفع وهو أن يكون بالهوينى والأسهل فالأسهل .

وخلاصة ذلك — إن الاستعاذة لاتؤثر إلا فى التقىّ ، لا أن الله تعالى يخشى فى حال دون حال ، فهو كقوله : « وَذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إن الإيمان يوجب ذلك .

فلما علم جبريل خوفها :

(قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) أى فقال لها الملَك مجيبا لها ومزيلا لما حصل عندها من الخوف على نفسها : لست ممن تظنين ، ولا يقع منى ما تتوهمين من الشر ، ولكنى رسول ربك بعثنى إليك ، لأهب لك غلاما طاهرا مبرأ من العيوب ، وقد أضاف الهبة إلى نفسه من قِبَل أنها جرت على يده بأن نفخ فى جيبها بأمر الله .

ولما عجبت مريم مما سمعت :

(قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا) أى قالت لجبريل : من أى وجه يكون لى غلام ولست بذات زوج ولا يتصور منى الفجور ؟.

(قال كذلك قال ربك هو علىّ هين) أى قال الملك مجيبا لها عما سألت : إن الله قد قال : إنه سيوجد منك غلام وإن لم تكونى ذات بعل ، ولا تقترفين فاحشة فإنه تعالى على ما يشاء قدير ، ولا يمتنع عليه فعل ما يريده ، ولا يحتاج فى إنشائه إلى الموادّ والآلات .

ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران : « كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

(ولنجعله آية للناس) أى وفعلنا ذلك لنجعل خلقه برهانا على قدرتنا ، فقد خلقنا أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلقنا عيسى من أنثى فحسب ، وخلقنا بقية الذرية من ذكر وأنثى ، وإلى الأولَيْن أشار القائل :

ألا رب مولود وليس له أب   وذى ولد لم يَلْدَه أبوان

(ورحمة منا) أى ورحمة من الله لعباده ، إذ بعثه نبيا يدعو إلى عبادته وتوحيده.

(وكان أمرا مقضيا) أى قد قضاه الله فى سابق علمه ، ومضى به حكمه ، فلا يغير ولا يبدّل : « مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) .

شرح المفردات

فانتبذت : أى فاعتزلت ، قصيا : أى بعيدا من أهلها وراء الجبل ، فأجاءها المخاض : أى فألجأها واضطرها؛ والمخاض: الطلق حين تحرك الولد للخروج من البطن والنسى (بفتح النون وكسرها) الشىء الحقير الذى من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل ، والمنسى : مالايخطر بالبال لتفاهته ، والسرىّ : السيد

الشريف ، والهز تحريك الشيء بعنف أو بدونه ، تساقط : أى تسقط ، ورطبا : أى بسرا ناضجا ، جنيا : أى صالحا للاجتناء ، فقولى : أى أشيرى إليهم . قال الفراء : العرب تسمى كل ما أفهم الإنسان شيئا ـ كلاما بأى طريق كان ، إلا إذا أكد بالمصدر فيكون حقيقة فى الكلام كقوله : « وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » صوما : أى صمتا .

الإيضاح

(فحملته فانتبذت به مكانا قصيا) أى فلما قال لها جبريل ما قال . استسلمت لقضاء الله فنفخ جبريل فى جيب درعها (الفتحة التى من الأمام فى القميص) فدخلت النفخة فى جوفها فحملته قاله ابن عباس ، وقال غيره : نفخ فى كمها ، والقرآن قد أثبت النفخ فقال : « فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا » ولم يعين موضع النفخ فلا نجزم بشيء من ذلك إلا بالدليل القاطع ، وحينئذ اعتزلت بالذى حملت وهو عيسى عليه السلام مكانا قاصيا عن الناس .

والقرآن الكريم لم يعين مدة الحمل (ولا حاجة إليها فى العبرة) فنقول إنها كانت كما يكون غيرها من النساء إلا إذا ثبت غيره ، وكذلك لا حاجة إلى تعيين سنها حينئذ إذ لا يتعلق به كبير فائدة .

وإنما اتخذت المكان البعيد حياء من قومها وهى من سلائل بيت النبوة ، ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالريبة فرأت أن لاتراهم وأن لا يروها .

(فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) أى فألجأها وجع الولادة وألم الطلق أن تستند إلى جذع النخلة للتشبث به لسهولة الولادة ، وتمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الوقت الذى لقيت فيه مالقيت ، حياء من الناس وخوفا من لائمتهم ، أو كانت شيئا لايعتد به ولا يخطر ببال أحد من الناس .

(فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) أى فناداها عيسى عليه السلام كما قال الحسن البصرى وسعيد بن جبير ، (وقد أنطقه الله حين وضعته تطييبا لقلبها ، وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد بادئ ذى بدء علوّ شأن ذلك المولود الذى بشرها به جبريل عليه السلام) ألا تحزنى فقد جعل ربك المحسن إليك تحتك غلاما رفيع الشأن سامى القدر ذا سخاء فى مروءة .

(وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) أى أميلى إليك جذع النخلة واجذبيه بتحريكه ، يُسْقِط عليك رطبا جنيا تأكلين منه ماتشائين .

وتلك آية أخرى لها ؛ إذ روى أنها كانت نخلة يابسة لارأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء ، فأنزل الله لها رزقا فجعل للنخلة رأسا وخوصا وجعل لها ثمرا رطبا — وهذه رواية يعوزها الدليل .

وفى هذا إيماء وتنبيه إلى أن من يقدر ان يثمر النخلة اليابسة فى الشتاء يقدر أن يجعلها تحمل من غير السنن العادية ، وإلى أن السعى فى الرزق مطلوب ولا ينافى التوكل ، ولله در القائل :

ألم تر أن الله أوحى لمريم وهزى إليك الجذع يسّاقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه إليها ولكن كل شىء له سبب

(فكلى واشربى وقرّى عينا) أى فكلى من ذلك الرطب واشربى من عصيره وطيبى نفسا وأبعدى عنك الأحزان ، فإن الله قدير أن ينزه ساحتك ويبعد عنك تخرصات المبطلين الذين يتقيدون بالسنن التى جعلها الله الطريق للولادة فى البشر ، ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك حتى يثبتوا لك القداسة والطهر .

(فإما ترينّ من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا) أى فإن رأيت أحدا من بنى آدم يسألك عن أمرك وأمر ولدك وكيف ولدته ، فأشيرى إليهم — إنى أوجبت على نفسى لله صمتا ألاّ أكلم أحدا اليوم ، فإن كلامى يقبل الرد والجدل ، ولكن يتكلم عنى ذلك المولود الذى لايقبل كلامه الدفع

والرد، وإنى أنزه نفسى عن مجادلة السفهاء، ولا أكلم إلا الملائكة أو أناجى الخالق .

وليس الصمت عن الكلام من شريعة الإسلام ، فقد روى أن أبا بكر دخل على امرأة قد نذرت ألا تتكلم فقال إن الإسلام قد هدم هذا فتكلمى ، وروى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود أنه جاءه رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ثم جلسا ، فقال القوم : ما لصاحبك لم يسلم ؟ قال إنه نذر صوما لا يكلم اليوم إنسيا ، فقال له ابن مسعود : بئس ماقلت . إنما كانت تلك المرأة قالت ذلك ليكون عذرا لها إذا سئلت ، وكانوا ينكرون أن يكون ولد من غير زوج إلا زنا - فكلم وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فإنه خير لك .

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) .

شرح المفردات

فريّا : أى عظيما خارقا للعادة؛ وهى الولادة بلا أب ، من فرى الجلد أى قطعه على وجه الإصلاح أو الإفساد، ومنه فى وصف عمر «فلم أر عبقريا يفرى فريّه» وفى المثل جاء يفرى الفرىّ ، وهرون هو أخو موسى عليه السلام ، وقيل هو رجل صالح من بنى إسرائل ، والأخت على هذا بمعنى المشابهة ، وشبهوها به تهكما ، أو لما رأوا من

قبل من صلاحها ، والمهد : الموضع يهيأ للصبى و يوطأ والجمع مهود ، والكتاب : الإنجيل ، مباركا : نفاعا للناس ، أو ثابتا فى دين الله ، الجبار : المتعظم الذى لا يرى لأحد عليه حقا ، والشقى : العاصى لربه .

الإيضاح

(فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريّا) أى إن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ولا تكلم أحدا من البشر ، وأنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها ــ سلمت أمرها إلى الله واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها وأتت به قومها تحمله ، فلما رأوها كذلك أعظموا مارأوا واستنكروا وقالوا يامريم لقد جئت أمرا عظيما منكرا .

ثم زادوا تأكيدا فى توبيخها وتعييرها فقالوا :

(ياأخت هٰرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) أى يامن أنت من نسل هٰرون أخى موسى ، كما يقال للتميمى يا أخا تميم ، وللمضرى يا أخا مضر ، أو يامن أنتِ شبيهة بذلك الرجل المسمى بهذا الاسم الذى كنت تتأسَّيْن به فى العبادة والزهد ــ ما كان أبوك بالفاجر وما كانت أمك بالبغىّ ، فمن أين لك هذا الولد ؟.

أخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وعبد بن حميد وابن أبى شيبة وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال «بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرءون « يَا أُخْتَ هٰرُونَ » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا أخبرتم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » وهذا التفسير النبوى يغنى عن سائر ما روى عن السلف فى ذلك .

(فأشارت إليه) أى فأشارت إلى عيسى أن كلموه ، و إنما اكتفت بالإشارة

ولم تأمره بالنطق لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام ، أو اقتصرت على ذلك المبالغة فى إظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الإشارة و يقدر على العبارة .

(قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) أى قالوا لها متهكمين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتهزأ : كيف نكلم من هو صبى فى المهد ، ولم يعهد فى مثله وهو لم يدْرُج بعدُ من حجر أمه أن يكلم أحدا ؟ .

روى أن عيسى لما سمع كلامهم أقبل عليهم وترك الرضاع وأشار بيمينه ، ثم بدأ يتكلم فوصف نفسه بجملة صفات :

(١) (قال إنى عبد الله) أى إنى عبدا لله الذى له صفات الكمال لا أعبد غيره ، وفى هذا إيماء إلى أن من كان عبد الله لايتُخذ إلها من دونه ، ولا يستعبده شيطان ولا هوى .

(٢) (آتانى الكتاب) أى سينزل علىّ الإنجيل .

(٣) (وجعلنى نبيا) أى وسيجعلنى نبيا ، وفى هذا براءة لأمه ، لأن الله لا يصطفى لنبوته أولاد سفاح .

(٤) (وجعلنى مباركا أينما كنت) أى سيجعلنى نفاعا للناس هاديا لهم إلى سبيل الرشاد فى أىّ مكان كنت ، وقد جعل هذه الصفات كأنها حدثت له فعلا وهى لم تحصل بعدُ ، من قِبَل أنها لما كانت واقعة حتما نزلت منزلة ماقد حصل .

(٥) (وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) أى وأمرنى بالصلاة ، إذ فى إقامتها و إدامتها على الوجه الذى سنه الدين - تطهير النفوس من الأرجاس ومنع لها عن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأمرنى بالزكاة بإعطاء جزء من المال للبائس والمحتاج ، لما فى ذلك من تطهير المال - مادمت حيا فى الدنيا .

(٦) (و برا بوالدتى) أى وجعلنى برا بوالدتى مطيعا لها محسنا ، وفى هذا رمز إلى نفى الريبة عنها ، إذ لو لم تكن كذلك لما أمر الرسول المعصوم بتعظيمها .

(٧) (ولم يجعلنى جبارا شقيا) أى ولم يجعلنى جبارا مستكبرا عن عبادته ، ولا شقيا بعقوق والدتى وعدم البر بها .

(٨) (والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) أى والأَمَنَة من الله على ، فلا يقدر أحد على ضرى فى هذه المواطن الثلاثة التى هى أشق ما تكون على العباد .

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم فى المهد ، واحتج النصارى على ذلك بأن هذا من الأحداث التى لو وجدت لتوافرت الدواعى على نقلها تواترا ، لأنه من المناقب السامية والفضائل التى لها الميزة العظمى بين الناس ، ولما لم يعرف ذلك لدينا مع تتبعنا لفضائله ، وشدة بحثنا عن الجليل والحقير من أحواله - علمنا أنه لم يوجد ، وأيضا فاليهود أظهروا عداوته حين ادعى النبوة ، فلو أنه تكلم إذ ذاك لكانت عداوتهم له أشد ، ولكان تحيلهم فى قتله أعظم ، ومن حيث لم يحصل شىء من هذا علمنا أنه لم يتكلم .

والمسلمون يقولون : كفى إثباتا لذلك نص القرآن القاطع - إلى أن العقل يرشد إليه ؛ إذ لولا كلامه الذى دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا الحد عليها ، وربما كان الحاضرون حين كلامه عددا قليلا ؛ ومن ثم لم يشتهر بينهم ، وربما لم يحضر اليهود كلامه ولم يسمعوا به

ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ

فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ، وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) .

شرح المفردات

قول الحق: أى قول الصدق الذى لاشبهة فيه، يمترون: أى يشكون و يتنازعون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد : أى ماينبغى ولا يصح أن يجعل له ولدا ، صراط مستقيم: أى طريق لايضل سالكه ، الأحزاب : فرق النصارى الثلاث ، مشهد : أى شهود وحضور ، يوم عظيم: هو يوم القيامة ، اليوم : أى فى الدنيا ، يوم الحسرة: هو يوم القيامة حين يندم الناس على مافرطوا فى جنب الله ، قضى الأمر: أى فرغ من الحساب .

الإيضاح

(ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون) أى ذلك الذى فصلت نبوّته وذكرت مناقبه وأوصافه هو عيسى بن مريم ، نقول ذلك قول الصدق الذى لاريب فيه ، لا كما يقول اليهود من أنه ساحر وحاشاه ، ولا كما تقول طائفة من النصارى إنه ابن الله ، ولا كما تزعم طائفة أخرى أنه هو الله ، ويخلعون عليه من صفات الألوهية ماهو منه براء .

ثم أكد مادل عليه سابق الكلام من كونه ابنا لمريم لا لغيرها بقوله :

(ما كان لله أن يتخذ من ولد) أى لايليق بحكمة الله وكمال ألوهيته أن يتخذ الولد ، لأنه لو أراده لخلقه بقول « كُنْ » فلا حمل ولا ولادة ، ولأن الولد إنما يرغب فيه ليكون حافظا لأبيه يعوله وهو حى ، وذكراً له بعد الموت ، والله تعالى لا يحتاج إلى شىء من ذلك ، فالعالم كله خاضع له ، لا حاجة له إلى ولد ينفعه ، وهو حى أبدا .

ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار إلى تنزيهه تعالى عن ذلك فقال :

(سبحانه) أى تنزه ربنا عن كل نقص من اتخاذ الولد أو غيره .

ثم ذكر علة هذا التنزيه و بيان الوجه فيه فقال :

(إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) أى إذا أراد شيئا فإنما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ومن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد ، لأن ذلك من أمارات النقص والاحتياج .

(وإن الله ربى وربكم فاعبدوه) أى ومما أمر به عيسى قومه وهو فى مهده أن أخبرهم بقوله ـ إن الله ربى وربكم ، وأمرهم بعبادته .

(هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى أوصيتكم به وأخبرتكم أن الله أمرنى به هو الطريق المستقيم ، فمن سلكه نجا ، ومن اتبعه اهتدى ، لأنه دين الله الذى أمر به أنبياءه ، ومن خالفه ضل وغوى ، وسلك سبيل الردى .

ثم أشار إلى أنه مع وضوح الأمر فى شأن عيسى وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ـ اختلفوا فيه كما قال :

(فاختلف الأحزاب من بينهم) أى اختلف قوم عيسى فى شأنه فرقا ثلاثا .
فقالت اليعقوبية : (نسبة إلى عالم منهم يسمى يعقوب) هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء ، وقالت النسطورية (نسبة إلى عالم يسمى نسطور) . كان ابن الله أظهره ما شاء ثم رفعه إليه . وقالت الملكانية (نسبة إلى الملك قسطنطين وكان فيلسوفا عالما) إنه كان عبدا لله مخلوقا . وهذا الرأى هو الذى نصره الملك ونصره غيره من شيعته .

ثم توعد من كذب على الله وافترى وزعم أن له ولدا فقال :

(فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) أى فعذاب شديد للكافرين من شهود ذلك اليوم وهو يوم القيامة ، لشدة بأسه وعذابه ، فالأيدى والأرجل والألسن

تشهد على أصحابها ، وقد أجل الله عقابهم إلى هـذا اليوم حلما منه وثقة بقدرته عليهم ، فهو لا يعجل عقوبة من عصاه كما جاء فى الصحيحين « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) وفى الصحيحين أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا أحد أصبر على أذًى سمعه من الله - إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم » .

ثم عجّب ربنا من قوة سمع الكفار وحدّة أبصارهم يوم القيامة وقد كانوا على الضد من هذا فى الدنيا فقال :

(أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) أى لئن كان هؤلاء الكفار الذين جعلوا لله أندادا وزعموا أن له ولدا - عمياً فى الدنيا عن إبصار الحق والنظر إلى حجج الله التى أودعها فى الكون دالة على وحدانيته وعظيم قدرته وبديع حكمته ، صمًّا عن سماع آى كتبه وما دعتهم إليه الرسل مما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم - فما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم فى الآخرة ، وما أبصرهم حينئذ ، حيث لايجدى السماع والإبصار شيئا ، ويعَضون على أناملهم حسرة وأسفا ، ويتمنون على الله الأمانى ، فيودون الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا مافاتهم من صالح العمل ، ولكن هيهات هيهات فقد فات الأوان .

صاح هل ريت أو سمعت براع رد فى الضَّرع ماقرى فى الحلاب

ومن ثم لايجاب لهم طلب ، بل يقال لكل أفاك أثيم « خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ » .

ثم أمر الله نبيه أن ينذر قومه والمشركين جميعا فقال :

(وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لايؤمنون) أى وأنذر الناس جميعا يوم يتحسر الظالمون على مافرطوا فى جنب الله حين فرغ من الحساب ، وذهب

أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، ونودى كل من الفريقين لاخروج من هنا بعد اليوم ، ولا موت بعد اليوم . روى الشيخان والترمذى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت بهيئة كبش أملح (يخالط بياضه سواد) فينادى منادٍ يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، فيقول هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم هذا الموت ، وكلهم قد رأوه ، ثم ينادى مناد يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ، فيقول هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم : هذا الموت وكلهم قد رأوه ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ « وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .

وقوله إذ قضى الأمر أى إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها ، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها بذبح الموت . وذبحه تصوير لأن كلا من الفريقين يفهم فهما لا لبس فيه أنه لاموت بعد ذلك .

وقوله : وهم فى غفلة أى عن ذلك اليوم ، وعن حسراته وأهواله ، وقوله : وهم لايؤمنون : أى وهم لايصدقون بالقيامة والبعث ومجازاة الله لهم على سيء أعمالهم بما أخبر أنه مجازيهم به .

ثم سلى رسوله وتوعد المشركين فقال :

(إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون) أى لايحزنك أيها الرسول تكذيب المشركين لك فيما أتيتهم به من الحق ، فإن إلينا مرجعهم ومصيرهم ومصير الخلق أجمعين ، ونحن وارثو الأرض ومن عليها من الناس بعد فنائهم ، ثم نجازى كل نفس بما عملت حينئذ فنجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ،لاظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب .

قصص إبراهيم عليه السلام

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَالَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّى عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) .

شرح المفردات

واذكر فى الكتاب : أى اتل فى هذه السورة ، صدّيقا : أى مبالغا فى الصدق لم يكذب قط ، صراطا سويا : أى طريقا مستقيما موصلا إلى نيل السعادة ، وليا : أى قرينا تليه ويليك فى العذاب ، أراغب أنت عن آلهتى : أى أكاره لها ، لأرجمنك : أى لأشتمنك باللسان أو لأرجمنك بالحجارة ، مليًّا : أى دهرا طويلا . قال مهلهل :

فتصدعت صُمُّ الجبال لموته وبكت عليه المُرْمِلات مليا

حفيا : أى مبالغا فى برّى وإكرامى ؛ يقال حفى به إذا اعتنى بإكرامه ، شقيا : أى خائب المسعى . لسان صدق : أى ثناء حسنا .

المعنى الجملى

اعلم أن المقصد من هذه السورة إثبات الوحدانية والنبوة والبعث ، والمنكرون للتوحيد فريقان : فريق أثبتوا معبودا سوى الله حيا عاقلا وهم النصارى . وفريق أثبتوا معبودا هو جماد ليس بحى ولا عاقل وهم عبدة الأصنام . والفريقان وإن اشتركا فى الضلال ، فضلال الفريق الثانى أشد ، ومن ثم قدم الكلام فى النصارى على الكلام فى عبدة الأصنام . وذكر قصص إبراهيم أوّلا لأنه أبو العرب وكانوا مقرين بعلوّ شأنه ، معترفين بدينه كما قال « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » إلى أنه تعالى نبههم إلى أن الطريق التى جروا عليها وهى التقليد بنحو قولهم « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » تخالف طريق الاستدلال التى سار عليها أبوهم إبراهيم فى حجاجه مع أبيه آزر .

الإيضاح

(واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟) أى واتل أيها الرسول على قومك الذين يعبدون الأصنام ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته ويدّعون أنهم على ملته (وهو الصدّيق النبى) . حين نهى قومه عن عبادتها وقال لأبيه : ما الذى حبّب إليك أن تعبد مالا يسمع ثناءك عليه حين عبادتك له ، ولا يبصر خشوعك وخضوعك بين يديه ، ولا ينفعك فيدفع عنك ضرا إذا استنصرت به ؟

وقد سلك عليه السلام فى دعوته أجمل الآداب فى الحجاج ، واحتج بأروع

البرهانات ليرده عن غيه ، ويقفه على طريق الهدى والرشاد ، فاستهجن منه أن يعبد مايستخفّ به كل ذى لبّ ، ويأبى الركون إليه كل ذى عقل ، فالعبادة هى الغاية القصوى فى التعظيم ، ولا يستحقها إلا الخالق الرازق المحيى المميت المثيب المعاقب ، لا الأصنام التى لاتسمع الأصوات ، ولا تنظر الأشياء ، وتعجز عن جلب المنافع ودفع المضار .

وقصارى ما قال — إن الإنسان السميع البصير يأنف أن يعبد نظيره ، فكيف تعبد ماخرج من الألوهية بفقره وضعفه واحتياجه إلى من يصنعه ، وعن الإنسانية بفقد العقل ، وعن الحيوانية بفقد الحواس .

أما كان لك عبرة فى حاجته وفقده السمع والبصر ؟

(يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا) أى يا أبى إنى وإن كنت من صلبك وترانى أصغر منك لأنى ولدك ، فاعلم أنى قد اطلعت من العلم على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ، فاتبعنى أهدك طريقا مستقيما لازيغ فيه يوصلك إلى نيل المطلوب ، وينجيك من كل مرهوب .

وفى قوله : قد جاءنى إيماء إلى أن هـذه المحاورة كانت بعد أن نبئ ، ولم يعين ما جاءه ليشمل كل مايوصله إلى الجنة ونعيمها ، ويبعد به عن النار وعذابها .

(يا أبت لاتعبد الشيطان) أى لاتطع الشيطان فى عبادة هذه الأصنام ، فإنه هو الداعى إلى عبادتها والموسوس بها .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » وقوله : « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَرِيدًا » .

ثم بين سبب النهى عن طاعته بقوله .

(إن الشيطان كان للرحمن عصيا) أى إن الشيطان عاص مستكبر عن شملته

رحمتك ، وعمته نعمتك ، ولا ريب فى أن من أطاع العاصى يكون عاصيا وجديرا بأن تسترد منه النعم ، وحقيقا بأن تنزل عليه النقم .

ثم حذره من سوء عاقبة ماهو فيه من عبادة الأصنام فقال :

(يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) أى يا أبى إنى أخاف لمحبتى لك ، وغَيرتى عليك ، أن يصيبك عذاب من الرحمن على شركك وعصيانك .

(فتكون للشيطان وليا) أى قرينا وتابعا له فى النار .

وقصارى ذلك — إنى أخاف أن تكون وليا للشيطان أى تابعا له فى الدنيا ، فيمسّك عذاب من الرحمن فى العقبى .

ولما دعا إبراهيم أباه إلى التوحيد ، وذكر الدلائل على فساد عبادة الأوثان ، وأردف ذلك بالوعظ واللطف ، قابله أبوه بجواب هو على ضد ذلك .

(قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟) أى أنكره آلهتى ولا ترغب فى عبادتها يا إبراهيم ؟

(لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا) أى لئن لم تنته عما أنت فيه من النهى عن عبادتها والدعوة إلى مادعوتنى إليه ، لأرجمنك بالحجارة ، فاحذرنى وابعد عنى بالمفارقة من الدار والبلد دهرا طويلا .

وقد قابل الأب رفق الابن بالعنف ، فلم يقل يابنى كما قال الابن يا أبت ، وقابل وعظه بالسفاهة ، إذ هدده بالشتم أو بالضرب بالحجارة بقوله : لئن لم تنته لأرجمنك .

وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتأسية له بإبراهيم فيما كان يلقى من الأذى من قومه ويقاسيه منهم ومن عمه أبى لهب من العنت والمكروه .

ولما سمع إبراهيم عليه السلام كلام أبيه أجابه بأمرين :

(١) (قال سلام عليك) أى سلمت منى لا أصيبك بمكروه ما لم أومر فيك بشىء ، وهذا جواب الحليم للسفيه ، وفيه توديع ومتاركة ومقابلة للسيئة بالحسنة ، وزاد على ذلك أن قال :

(٢) (سأستغفر لك ربى) أى سأطلب لك من ربى الغفران ، بأن يوفقك للهداية ، وينير بصيرتك لقبول الحق ، ويرشدك إلى مافيه الخير ، ونحو الآية قوله : « وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » .

وقصارى دعائه - رب اهد أبى وأخرجه من الضلال .

وإنما استغفر له ، لأنه كان قد وعده أن يؤمن كما قال : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ » .

ثم ذكر أنه محبب إلى ربه فإذا هو استغفر له أجاب طلبه فقال :

(إنه كان بى حفيا) أى إنه سبحانه للطفه بى وإنعامه علىّ عوّدنى الإجابة ، فإذا أنا استغفرت لك أغاثك بجوده وكرمه ، وغفر لك ذنوبك إن تبت إليه وأنبت.

ثم بين مابيّت النية عليه ، وعزم على إنفاذه فقال :

(وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) أى وأتباعد عنك وعن قومك وعما تعبدون من الأوثان والأصنام ، وأفر بدينى وأتشاغل بعبادة ربى الذى ينفعنى ويضرنى ، إذ لم تؤثر فيكم نصائحى ، وقد روى أنه عليه السلام هاجر إلى بلاد الشام ، وفى هجرته هذه تزوج سارّة .

(وأدعو ربى) أى وأعبده سبحانه وحده ، وأجتنب عبادة غيره من المعبودات .

(عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) أى لعلى لا أكون بدعاء ربى المنعم علىّ خائب المسعى ، كما خبتم أنتم وشقيتم بعبادة تلك الأوثان التى لاتجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضركم .

وقد حقق ماعزم عليه ، فحقق الله رجاءه ، وأجاب دعاءه فقال :

(فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ، وكلا جعلنا نبيا) أى فلما اعتزل إبراهيم أباه وقومه لم يضره ذلك لافى دين ولا دنيا ، بل نفعه إذ أبدله بهم من هم خير منهم ووهبه بنين وحفدة هم آباء الأنبياء من بنى إسرائيل

ولهم الشأن الخطير والقدر العظيم ، فقد وهبه إسحٰق وولد لإسحٰق يعقوب وقاما مقامه بعد موته وورثا منه النبوة . أما إسماعيل فتولى الله تربيته بعد نقله رضيعا إلى المسجد الحرام فأحيا تلك المشاعر العظام ، ومن ثم أفرده بالذكر بقوله : «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ » الآية .

ثم صرح بما وهب لأولاده جزاء على هجرته بقوله :

(وكلاّ جعلنا نبيا) أى وجعلنا له نسلا وعقبا من الأنبياء أقر الله بهم عينيه فى حياته .

(ووهبنا لهم من رحمتنا) أى وآتيناهم من فضلنا الدينى والدنيوى مالم نؤته أحدا من العالمين ، فآتيناهم النسل الطاهر والذرية المباركة ، وإجابة الدعاء واللطف فى القضاء والبركة فى المال والأولاد إلى نحو أولئك من خيرى الدنيا والآخرة .

(وجعلنا لهم لسان صدق عليا) فمحامدهم مذكورة فى جميع الأزمان ، سطرها الدهر على صفحاته استجابة لدعوته عليه السلام بقوله : « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » قال ابن جرير وإنما قال عليًّا ، لأن جميع الملل والأديان تثنى عليهم وتمدحهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد اجتمعت لإبراهيم خلال لم تجتمع لسواه :

(١) إنه اعتزل قومه حبا فى الله فآتاه الله من هم خير منهم ، فوهب له إسماعيل وإسحٰق ويعقوب .

(٢) إنه تبرأ من أبيه حين تبين منه أنه عدو لله ، لاجرم سماه الله أبا المسلمين بقوله : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » .

(٣) إنه تلّ ولده للجبين ، ليذبحه إطاعة لأمر الله ففداه الله بذبح عظيم .

(٤) إنه أسلم نفسه للنار ابتغاء رضوان الله فكانت عليه بردا وسلاما .

(٥) إنه أشفق على هـذه الأمة فقال : « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ »

وأشركه الله فى الدعاء وفى الصلوات الخمس - وصل على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .

(٦) إنه عادى كل الخلق فى الله فقال : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ » فاتخذه الله خليلا كما أخبر بذلك الكتاب : « وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً » .

(٧) إن الله مدحه بقوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى » لاجرم جعل موطئ قدميه مباركا كما قال : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » .

قصص موسى عليه السلام

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) .

شرح المفردات

مخلصا : أى مختارا مصطفى ، وقربناه : أى تقريب تشريف وتكريم ، والطور : هو الجبل الذى بين مصر ومدين ، ونجيا : أى مناجيا مكالما لله بلاواسطة .

الايضاح

(واذكر فى الكتاب موسى) أى واتل أيها الرسول على قومك ما اتصف به موسى عليه السلام من صفات الجلال والكمال التى سأقصها عليك ، ليستبين لك علو قدره وعظيم شأنه ، وتلك هى :

(١) (إنه كان مخلصا) أى إن الله أخلصه واصطفاه وأبعد عنه الرجس وطهره من الذنوب والآثام كما جاء فى الآية الأخرى : « إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِى وَبِكَلاَمِى » .

(٢) (وكان رسولا نبيا) أى إن الله أرسله إلى الخلق داعيا ومبشرا ونذيرا ، والرسول هو من أرسله الله إلى الناس ومعه كتاب فيه شريعته التى أرسله بها كموسى عليه السلام ، والنبىّ هو الذى ينبئ عن الله ويخبر قومه عنه ، وليس معه كتاب كيوشع عليه السلام .

(٣) (وناديناه من جانب الطور الأيمن) أى وكلمناه من الجانب الأيمن للطور أى الذى عن يمين موسى حين أقبل من مدين متوجها إلى مصر وأنبأناه بأنه رسولنا ثم واعدناه إليه بعد إغراق آل فرعون ورحمنا بنى إسرائيل بإنزال الكتاب عليهم.

(٤) (وقربناه نجيا) أى وقربناه تقريب تشريف وإجلال حين مناجاته لنا ؛ وقد مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته ، واصطفاه لمصاحبته ، ورفع الوسائط بينه وبينه .

وقصارى ذلك — إنه تجاوز العالم المادى وانغمس فى العالم الروحى ، فقرب من الله وارتقت نفسه حتى بلغت أقصى مناها ، واستعدت للاطلاع على عالم الملكوت ، ورؤية ما غاب عن عالم المادة .

(٥) (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هٰرون نبيا) أى ووهبنا له من بعض رحمتنا معاضدة أخيه ومؤازرته ، إجابة لدعوته عليه السلام بقوله : « وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هٰرُونَ أَخِي » وحققنا ما طلبه له ، وجعلناه نبيا : « قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى » .

قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هٰرون أن يكون نبيا ، قال ابن عباس : كان هٰرون أكبر من موسى بأربع سنين.

قصص إسماعيل عليه السلام

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)

المعنى الجملى

قدم الكلام فى موسى على الكلام فى إسماعيل ليكون الحديث عن يعقوب و بنيه فى نسق واحد دون فاصل بينهما ، و إسماعيل هو إسماعيل بن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، وقد أثنى عليه ر به بما هو أهله ووصفه بصفات هى مفخرة البشر ومنتهى السموّ والفضل فى هذه الدنيا .

الإيضاح

(واذكر فى الكتاب إسماعيل) أى اتل أيها الرسول على قومك صفات أبيهم إسماعيل ، علهم يهتدون بهديه ، و يحتذون حذوه ، و يتخلقون بمثل ما له من مناقب وفضائل منها :

(١) (إنه كان صادق الوعد) فما وعد عدة إلا وفّى بها ، حتى وعد أباه بالصبر على الذبح فقال : « سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » فصدق فى ذلك ووفّى بما قال ، وامتثل حتى جاءه الفداء .

وصدق الوعد من الصفات التى حث عليها الدين ، وشدد فيها أيما تشديد فقال تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب : و إذا وعد أخلف . و إذا اؤتمن خان » وقد فقدت هذه الصفة من كثير من المسلمين ، فلا تجد عالما ولا جاهلا إلا وهو بمنأى عنها ولا سيما التجار والصناع والعمال .

(٢) (وكان رسولا نبيا) أى وكان رسولا إلى جُرْهُم الذين حلوا بمكة معه ومع أمه ، وكان مرسلا من الله بتبليغ شريعة إبراهيم ، فنبأ بها قومه وأنذرهم وخوفهم ومن هذا يعلم أن الرسول لايجب أن ينزل عليه كتاب مستقل .

(٣) (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة) أى إنه بعد أن كمل نفسه اشتغل

بتكميل أمته وأقرب الناس إليه ، على نحو ما قاله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » وقال : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » وقال : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ».

(٤) (وكان عند ربه مرضيا) عمله ، محمودا فيما كلفه ربه ، غير مقصر فى طاعته فاقتد أيها الرسول به ، لأنه من أجل آبائك .

قصص إدريس عليه السلام

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) .

الإيضاح

(واذكر فى الكتاب إدريس) بالثناء عليه ، والنسابون يقولون إنه جد أبى نوح عليه السلام ، ويقولون إنه أول من خط بالقلم وخاط الثياب ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من نظر فى النجوم وتعلم الحساب ، وجعل الله ذلك من معجزاته .

وإن تقادم العهد وطول الزمن وعدم وجود السند الصحيح الذى يعول عليه فى الرواية ، يجعلنا فى شك من كل هذا ، فعلينا أن نكتفى بما جاء به الكتاب الكريم فى شأنه ، وقد وصفه الله بجملة صفات كلها مفاخر ومناقب إعظام وإجلال :

(١) (إنه كان صديقا) تقدم القول فيها .

(٢) (نبيا) » » »

(٣) (ورفعناه مكانا عليا) أى أعلينا قدره ورفعنا ذكره فى الملأ ، ونحو هذا قوله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » ويرى بعض الباحثين

فى الآثار المصرية أن إدريس تعريب لكلمة (أوزريس ـ أموريس) وهوالذى ألف له المصريون القدماء رواية خلدت فى بطون تواريخهم ، ومنها أنه حصل بينه و بين أخيه تحاسد وشقاق أدى إلى قتله وتقطيعه إرْبًا إرْبًا ، فجمعت امرأته تلك القطع وحفظتها وحنطتها ، وجعلوه إلها بعد أن كان مصلحا عظيما .

وهذا القصص الخرافى جعل المصريين يُعْنَوْن بتحنيط الموتى ، وقد أفاد هذا العمل صناعة التحنيط ورقاها حتى صارت مضرب الأمثال فى الخافقين .

وقد كان الملك والدين فى عهد تلك الدولة أمرا واحدا ، فالملك يجمع بين شئون الدين والدنيا ، فمن عصى الملك فقد عصى الله .

و يعتقدون أن أوزريس صعد إلى السماء وصار إلى العالم العلوى وله عرش عظيم فى السماء ، و يتمتع بأعظم الخيرات ، وكل من حفظ جسمه ووزنت أعماله بعد الموت وحكم القضاة وهم اثنان وأربعون قاضيا بأن حسناته غلبت سيئاته ـ يلحق بأوزريس وهـذا النبى الذى جعلوه إلها بعد ذلك هو الذى علمهم العلوم والمعارف و ينسبون الفضل فى ذلك إليه .

وقد ارتقت الأمة المصرية فى العلوم والمعارف إلى حد لم تصل إليه أمة أخرى لافى القديم ولا فى الحديث . وخدمت النوع البشرى خدمة جليلة ، فارتفاع إدريس إلى السماء راجع إلى رقى تعاليمه وانتفاع أمته بها ، فالنبى بأمته ، ومن ثم تجد آثار أمته بادية للعيان بعد أن كانت خافية عن الأنظار .

و بعد أن ذكر الله أولئك المرسلين أخذ يعدد مناقبهم و يذكر صفاتهم فقال :

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) .

شرح المفردات

إسرائيل : يعقوب عليه السلام، واجتباه : اصطفاه واختاره ، والسجّد، واحدهم ساجد ، والبكىّ : واحدهم باكٍ، يقال بكى يبكى بكاء ، و بكيا: قال الخليل : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن أى لاصوت معه كما قال الشاعر :

بكت عينى وحق لها بكاها   وما يغنى البكاء ولا العويل

المعنى الجملى

بعد أن أفرد الله كل رسول من رسله العشرة الذين سبق ذكرهم بالثناء عليه بما هو جدير به — أردفه بذكر بعض ما جازاهم به من النعم ، فقد هداهم إلى سبل الخير واصطفاهم من سائر خلقه .

الإيضاح

(أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين) أى هؤلاء النبيون الذين قصصت أنباءهم عليك أيها الرسول هم الذين أنعم الله عليهم بما خصهم به من مزيد القرب إليه ، وعظيم المنزلة لديه ، وهداهم إلى سبيل الرشاد ، ورفع ذكرهم بين العباد .

(من ذرية آدم) أبى البشر الأول .

(وممن حملنا مع نوح) أى ومن ذرية من حملنا مع نوح أبى البشر الثانى فى الفلك كإبراهيم خليل الرحمن .

(ومن ذرية إبراهيم) وهم إسحاق و يعقوب و إسماعيل .

(و إسرائيل) أى ومن ذرية إسرائيل أى يعقوب عليه السلام، وهم : موسى وهرون وزكريا وعيسى وأمه مريم .

(وممن هدينا واجتبينا) أى ومن جملة من هديناهم إلى سبيل الحق ، واجتبيناهم للنبوة والكرامة .

(إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) أى إذا تتلى على هؤلاء الأنبياء الذين أنعم الله عليهم أدلة الله وحججه التى أنزلها عليهم فى كتبه - خروا لله سجدا استكانة له وتذللا وخضوعا لأمره وانقيادا ، وهم باكون خشية منه وحذرا من عقابه .

قال صالح المرى : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال: يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وفى الحديث «اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا» . وعن ابن عباس : إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه .

وقصارى ذلك — إنه سبحانه أبان علوّ أمرهم فى الدين والنسب والقرب منه .

جزاء خلف هؤلاء ممن ضل وغوى

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) .

شرح المفردات

الخلْف : (بسكون اللام) عقب السوء ، ويقال لعقب الخير والصدق خلَف (بفتح اللام) ، أضاعوا الصلاة : أى تركوها بتاتا ، اتبعوا الشهوات : أى انهمكوا فى المعاصى واللذات ، غيا : أى ضلالا ، والمراد يلقون جزاءه فى نار جهنم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حزب السعداء وهم الأنبياء ومن تبعهم بإحسان ممن قاموا بحدود الدين فاتبعوا أوامره وأدوا فرائضه وتركوا نواهيه — أردف هذا بذكر من

خلفهم ممن أضاعوا واجباته ، وأقبلوا على شهوات الدنيا ولذاتها ، وأعقب هذا بذكر ما ينالهم من النكال والوبال فى الآخرة إلا من تاب وأناب فإن الله يقبل توبته ، ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولا ينقصه شيئا من جزاء أعماله . قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى قوم من هذه الأمة يتراكبون فى الطرق كما تراكب الأنعام لايستحيون من الناس ولا يخافون من الله فى السماء ، وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم فى جماعة آخرين عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله صلى عليه وسلم وتلا هذه الآية قال : « يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لايعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «سيهلك من أمتى أهل الكتاب وأهل اللبن» قلت يارسول الله ما أهل الكتاب ؟ قال : « قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا » قلت وما أهل اللبن؟ قال : « قوم يتبعون الشهوات ، ويضيعون الصلوات » .

الإيضاح

(فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) أى فجاء من بعد الأنبياء الذين ذكروا - خلف سوء خلفوهم فى الأرض كاليهود والنصارى ومن على شاكلتهم من أهل الضلال ، إذ تركوا الصلوات المفروضة عليهم ، وآثروا شهواتهم على طاعة الله ، فانكبوا على شرب الخمور ، وشهادة الزور ، ولعب الميسر ، وإتيان الفاحشة خفية وعلانية .

ثم ذكر عاقبة أعمالهم وسوء مآلهم فقال :

(فسوف يلقون غيًّا) أى شرا وخسرانا لإهمالهم أداء واجبات الدين وانهماكهم فى المعاصى والآثام .

(إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة) أى لكن من أناب إلى ربهم ، وأقلعوا عن ذنبهم ، وآمنوا بالله ورسوله وأطاعوه فيما أمر به وأدوا فرائضه ، فأولئك يدخلهم ربهم جناته ، ويغفر لهم حوْباتهم ، فالتوبة تجُبّ ما قبلها كما جاء فى الحديث « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(ولا يظلمون شيئا) أى ولا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم ، إذ أفعالهم السابقة ذهبت هباء وصارت نسيا منسيا بكرم اللطيف الخبير، وعظيم حلمه على عباده .

ولما ذكر أن التائب يدخل الجنة وصف هذه الجنة بأمور فقال :

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) .

شرح المفردات

جنات عدن : أى جنات إقامة، وهذا وصف لها بالدوام ، بالغيب ، أى وهى غائبة عنهم ، وعده، أى ماوعد به من الجنات ، مأتيا، أى يأتيه من وعد به لا محالة ، لغوا أى فضولا من الكلام لاطائل تحته ، سلاما، أى سلاما من الله أو من الملائكة .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه أنه يدخل التائبين الجنة ــ وصف هذه الجنة بجملة أوصاف كلها غاية فى تعظيم أمرها ، وشريف قدرها ، وجليل خطرها .

الإيضاح

أوصاف هذه الجنة :

(١) (جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا) أى هذه الجنات هى جنات إقامة دائمة لا كجنات الدنيا ، وقد وعد بها المتقين وهى غائبة عنهم لم يشاهدوها ، ووعد الله لا يخلف ، فهم آتوها لامحالة .

(٢) (لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما) أى لا يسمع المتقون فيها فضول القول وما لا طائل تحته ، ولكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم بما يشعرهم بالأمان والاطمئنان ، وهما منتهى السعادة ، والدنيا لاطمأنينة فيها ولا استقرار فلا سعادة فيها ولا نعيم ، ومن ثم طلب إلينا أن ندعو فى الصلاة بالأمان ونقول : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

ولا شك أن تكرار هذه العبارة فى الصلوات يحدث فى النفس أثرا إذا أدركت مغزاها ، ويشعر بأن الله لم يخلق العالم إلا لغاية واحدة وهى الطمأنينة ، ولا تكون إلا إذا أمن المرء الفقر والمرض والشيخوخة ، وأنى لنا بذلك فى الدنيا ؟ وإنما تكون الطمأنينة لعباده المتقين فى الآخرة ، وهذا المعنى هو الذى تترجم عنه الجملة (السلام عليكم) أى إن الأمان سيحققه الله لكم بأن يأمن بعضكم بعضا فى الدنيا وفى الآخرة بالخروج من جميع المآزق .

وهذا الدعاء أمنية من أمانى النفوس لا تتحقق إلا إذا أمن الإنسان العذاب والعقاب وانتهى الحساب وارتفع السوء كالمرض والموت والفقر والذل يوم القيامة .

(٣) (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) أى ولهم مايشتهون من المطاعم والمشارب فى قدر وقت البكرة ووقت العشى من نهار أيام الدنيا أى إن الذى بين غدائهم وعشائهم فى الجنة قدر ما بين غداء أحدنا فى الدنيا وعشائه .

وخلاصة ذلك - إنه لا بكرة فى الجنة ولا عشى ، إذ لا ليل ولا نهار . وإنما يؤتون بأرزاقهم فى مقدار طرفى النهار كما كانوا فى الدنيا .

ولما ذكر أن هذه الجنة تخالف جنات الدنيا ــ ذكر الدواعى التى توجب استحقاقها فقال :

(تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) أى هذه الجنة التى وصفت بهذه الصفات الشريفة ، نورثها عبادنا المتقين الذين يطيعون الله فى السر والعلن ،

ويحمدونه على السراء والضراء ، والمراد أننا نجعلها مسكنا لهم كملك الميراث الذى هو أقوى تمليك ، وجاء بمعنى الآية قوله : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » إلى أن قال : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

شرح المفردات

التنزل : النزول وقتا غب وقت ، ما بين أيدينا : أى ما قدامنا من الزمان المستقبل ، وما خلفنا : أى من الزمان الماضى ، وما بين ذلك : هو الزمان الحاضر ، نسيًّا ، أى تاركا لك ، واصطبر عليها ، أى اثبت لشدائد العبادة وما فيها من المشاق كما تقول للمبارز : اصطبر لقرينك ، أى اثبت له فيما يورد عليك من حملاته ، سميًّا أى مثلا ونظيرا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام تثبيتا له صلى الله عليه وسلم وأعقبه بذكر ما أحدثه الخلف بعدهم ، وذكر جزاء الفريقين ، أعقب ذلك بقصص تأخر نزول جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم : إذ زعم المشركون أن الله ودّعه وقلاه ، وقد رد عليهم زعمهم وأبان لهم أن الأمر على غير مازعموا .

روى أن جبريل عليه السلام احتبس عنه صلى الله عليه وسلم أياما حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، ولم يدر عليه السلام كيف يجيب ؟

فحزن واشتد عليه ذلك ، وقال المشركون إن ربه ودعه وقلاه ، فلما نزل قال له عليه السلام يا جبريل احتبست عنى حتى ساء ظنى ، واشتقت إليك ، فقال إنى إليك لأشوق ، ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، وأنزل الله هذه الآية ، وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت هذه الآية إلى آخرها .

الإيضاح

(وما نتنزل إلا بأمر ربك) أى وما تنزل الملائكة بالوحى على الرسل وقتا بعد وقت إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته ، وتدعو إليه مصلحة عباده ، ويكون فيه الخير لهم فى دينهم ودنياهم .

ثم علل الملك ذلك بقوله :

(له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) أى إنه تعالى هو المدبر لنا فى جميع الأزمنة مستقبلها وماضيها وحاضرها .

وقصارى ذلك — إن أمرنا موكول إلى الله تعالى يتصرف فينا على حسب مشيئته وإرادته لا اعتراض لأحد عليه ، فلا ننتقل من مكان إلى مكان ، ولا ننزل فى زمان دون زمان إلا بإذنه عزّ وجل .

(وما كان ربك نسيا) أى إنه تعالى لإحاطة علمه بملكه ، لا يطرأ عليه غفلة ولا نسيان حتى يغفل عنك وعن الإيحاء إليك ، وإنما كان تأخير الوحى لحكمة علمها جل شأنه . أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى فى جماعة آخرين عن أبى الدرداء مرفوعا قال «ما أحل الله فى كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا ثم تلا : « وما كان ربك نسيا » .

ثم أقام الدليل على ما تقدم بقوله :

(رب السموات والأرض وما بينهما) فلا يجوز عليه النسيان ، فإن من بيده ملكوت كل شيء ، كيف يتصور أن تحوم حوله الغفلة والنسيان .

ثم بين ماينبغى المرء أن يفعله بعد أن عرف هذا فقال :

(فاعبده واصطبر لعبادته) أى وإذ قد علمت أنه الرب المسيطر على ما فى السموات والأرض وما بينهما ، القابض على أعنتهما ، فاعبده ودم على مشاق العبادة وشدائدها ، وإياك أن يصدك عنها ما يحدث من إبطاء الوحى وتقوّل المشركين الخرّاصين عن سببه :

ثم أكد الأمر بالعبادة بقوله :

(هل تعلم له سميا ؟) أى هل تعلم له شبيها ومثلا يقتضى العبادة لكونه منعما متفضلا بجليل النعم وحقيرها ، ومن ثم يجب تعظيمه غاية التعظيم بالاعتراف بربوبيته ، والخضوع لسلطانه .

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) .

شرح المفردات

يذكر : أى يتذكر ويتفكر ، لنحشرنهم : أى لنجمعنهم ، جثيا ، واحدهم جاث وهو البارك على ركبتيه ، شيعة : أى جماعة تعاونت على الباطل وتشايعت عليه ،

عتيا : أي تكبرا ومجاوزة للحد ، صليا : أي دخولا فيها من صلى بالنار إذا قاسى حرها ، واردها : أي مارّ عليها ، حتما : أي واجبا ، مقضيا : أي قضى بوقوعه البتة.

المعنى الجملي

بعد أن أمر سبحانه بالعبادة والمصابرة عليها على مافيها من مشاقّ وشدائد - أبان فائدة ذلك وهى أنها تنجيهم يوم الحشر يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وهو يوم لاريب فيه ولا وجه لإنكاره ، فإن إعادة الإنسان أهون من بدئه ، ثم ذكر ما يلقاه الكافرون يومئذ من الذل والهوان ، ثم أردف ذلك ببيان أن جميع الخلائق ترد على النار ولا ينجو منها إلا من اتقى ربه وأخلص فى عمله .

روى الكلبى أنها نزلت فى أبىّ بن خلف . أخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويذريه فى الريح ويقول: زعم فلان أنا نبعث بعد أن نموت ونكون مثل هذا ، إن هذا لن يكون أبدا .

الإيضاح

(ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) أى ويقول الكافر الذى لايصدق بالبعث بعد الموت متعجبا مستبعدا : أأخرج حيا مرة أخرى فأبعث بعد الموت والبلى ؟ وأسند القول إلى الكفرة جميعا وإن لم يقل هذه المقالة إلا بعضهم من حيث رضاهم عن هذا المقال وسكوتهم عن إنكاره كما سلف لك من قبل .

ثم أقام الدليل على صحة ذلك بقوله :

(أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ؟) أى أو لايتفكر الإنسان المجترئ على ربه المنكر لتلك الإعادة بعد الفناء ، والإحياء بعد الممات ،

أن الله خلقه من قبل مماته ، فأنشأه بشرا سويا من غير شيء ، فليعتبر بذلك وليعلم أن من أنشأه كذلك لا يعجز عن إحيائه بعد مماته ، وإيجاده بعد فنائه .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ : أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » وقوله : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وقوله : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وفى الحديث القدسى : « يقول الله تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى ، أما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من آخره ، وأما أذاه إياى فقوله : إن لى ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

ولما قرر القضية وأقام عليها الدليل أردفها بالتهديد من وجوه فقال :

(١) (فوربك لنحشرنهم والشياطين) أقسم الرب بنفسه الكريمة أنه حاشرهم جميعا وشياطينهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله .

وفى قسَمه على جمعهم وسوقهم إلى المحشر دون القسم على بعثهم ، تنبيه إلى أن ذلك غنىّ عن الإثبات بعد أن أقام البرهان على إمكانه ، وإنما الذى يحتاج إلى ذلك ما بعده من الشدائد والأهوال .

روى أن الكافرين يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين كانوا يغوونهم ، كل منهم مع شيطانهم .

(٢) (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) أى ثم لنحضرنهم بعد طول الوقوف حول جهنم من خارجها ــ جاثين على ركبهم إهانة لهم ، أو لعجزهم عن القيام لما حل بهم من المكاره والأهوال .

(٣) (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا) أى لنأخذن من

كل جماعة منهم من هو أشد على الرحمن الذى غمرهم بإحسانه – تكبرا ومجاوزة للحدود التى سنها لخلقه .

وقصارى ذلك – إن الله تعالى يحضرهم أولا حول جهنم ، ثم يميز بعضهم عن بعض . فمن كان أشدهم تمردا فى كفره ، خص بعذاب أعظم ، فعذاب الضال المضل فوق عذاب من يضل بالتبع لغيره .

(ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) أى ثم لنحن العالمون بظواهر أعمالهم وبواطنها ، وبما اجترحوا من السيئات ، وبما دسوا به أنفسهم من الموبقات ، مَن هم أولى بجهنم دخولا واحتراقا ، فنبدأ بهم أولا ثم بمن يليهم .

وخلاصة هذا – إنهم جميعا يستحقون العذاب ، لكننا ندخلهم فى جهنم على حسب عتيهم وتجبرهم فى كفرهم .

ثم خاطب سبحانه الناس جميعا فقال :

(وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) أى وما أحد منكم أيها الناس إلا يدنو من جهنم ويصير حولها ، قد قضى ربك بذلك وجعله أمرا محتوما مفروغا منه .

روى السدى عن ابن مسعود قال: «يرد الناس جميعا الصراط، ويقومون حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل...» فى حديث طويل ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرد الناس كلهم ثم يصدرون بأعمالهم .

(ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) أى إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة على قدر ما اجترحوا من الآثام والذنوب – نجى الله المتقين منها على حسب أعمالهم ، وترك الكافرين جاثين على الركب كما جاءوا .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) .

شرح المفردات

بينات : أى ظاهرات الإعجاز ، مقاما : أى مكانا ومنزلا ، نديا : أى مجلسا ومجتمعا ، ومثله النادى ؛ وقيل هو المجلس الذى يجتمع فيه لحادثة أو مشورة ومنه دار الندوة التى كان المشركون يتشاورون فيها فى أمورهم، والقرن: أهل كل عصر، والأثاث: متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها ولا واحد له ، والرئى المنظر والمراد به النضارة والحسن ، فليمدد : أى فيمهله بطول العمر والتمكن من سائر التصرفات ، جندا : أى أنصارا . والباقيات الصالحات : أى الطاعات التى تبقى آثارها ، مردا : أى مرجعا وعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث بعد الفناء ، وللعودة إلى حياة أخرى ــ أتبعه بذكر شبهة أخرى قالوها وعارضوا بها حجة الله التى يشهد بصحتها كل منصف ، ويعتقدها من له أدنى مسكة من عقل .

تلك أنهم قالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن وأطيب من حالنا ، من قِبَل أن الحكيم لايجدر به أن يوقع المخلصين من

أوليائه فى الذل والمهانة ، وأعداءه فى العز والراحة، لـكننا نجد الأمر على العكس من هذا ، فإنا نحن الذين يتمتعون برفاهية العيش والرخاء والنعيم ، وأنتم فى ضنك وفقر وخوف وذل . فهذا دليل على أنا على الحق وأنتم على الباطل .

وقد رد الله عليهم مقالتهم بأن الكافرين قبلـكم وهم كانوا أحسن منكم حالا ، وأكثر مالا ، قد أبادهم الله وأهلـكهم بعذاب الاستئصال ، فدل هذا على أن نعيم الدنيا لا يرشد إلى محبة الله لمن أوتوه ، ولا إلى أنهم مصطفَوْن له من بين خلقه .

روى أن قائل هذه المقالة النضر بن الحرث ومن على شاكلته من قريش ، للمؤمنين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا فى خشونة من العيش وفى رثاثة من الثياب ، وهم كانوا يرجّلون شعورهم ويلبسون فاخر الثياب .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليـه وسلم أن يجيب هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية ببيان مآل الفريقين يوم القيامة . وأن ما كان للمشركين فى الدنيا من المال وسعة الرزق فإنما ذلك استدراج وإمهال من الله لهم ، ثم يلقون النكال والوبال فى جهنم وبئس القرار .

الإيضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟) أى وإذا تتلى على المشركين آياتنا واضحات الدلالة قالوا مفتخرين على المؤمنين ، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الباطل ، أىّ الفريقين منا ومنكم أوسع عيشا وأنعم بالا وأفضل مسكنا وأحسن مجلسا وأجمع عددا ؟ أنحن أم أنتم ؟ فـكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك المستخفون المستترون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ونحوها من الدور على الحق ؟

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ » .

وقد رد الله عليهم شبهتهم بقوله :

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا) أى وكم من أمة من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم وقد كانوا أحسن من هؤلاء أموالا وأثاثا ومناظر ذات جمال وزخرف .

وخلاصة هذا — إن كثيرا ممن كانوا أعظم منكم نعمة فى الدنيا كعاد وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية قد أهلكهم الله ، فلو صدق ما تدّعون من أن النعمة فى الدنيا تدل على الكرامة عند الله ، ما أهلك أحدا من المتنعمين بها .

وفى هذا تهديد ووعيد لا يخفى ، وكأنه قيل فليرتقب هؤلاء ، فسيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات .

ثم أمر الله نبيه أن يجيب هؤلاء المفتخرين بقوله :

(قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المدعين أنهم على الحق ، وأنكم على الباطل : إن ما افتخرتم به من زخرف الدنيا وزينتها لا يدل على حسن الحال فى الآخرة ، فقد جرت سنة الله بأن من كانوا منهمكين فى الضلالة ، مرخين لأنفسهم الأعنّة ، فى سلوك المعاصى والآثام ، يبسط لهم نعيم الدنيا ، ويطيب عيشهم فيها ، ويمتعهم بأنواع اللذات ، ولا يزال يمهلهم استدراجا لهم إلى أن يشاهدوا ما وعدوا به رأى العين ، إما عذابا فى الدنيا كما حصل يوم بدر ، وإما مجىء الساعة وهم بها مكذبون ، وعن الاستعداد لها مفرطون ، وإذ ذاك يعلمون من هو شر من الفريقين مكانا ، وأن الأمر على عكس ما كانوا يقدرون ، وسيرون أنهم شر مكانا وأضعف جندا وأقل ناصرا من المؤمنين ، وهذا رد على قولهم (أىّ الفريقين خير مقاما وأحسن نديا) .

ونصارى ذلك — إن من كان فى الضلالة فسنة الله أن يمد له ويستدرجه ليزداد إثما ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر إما بعذاب فى الدنيا يأتيه من حيث

لايحتسب ، وإما بعذاب فى الآخرة لاقِبَل له بدفعه ، وحينئذ يعلم أنه كان فى ضلال مبين ، ويندم ، ولات ساعة مندم :

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ولا يجد عن النار محيصا ولا مهربا .

(ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) أى ويزيد الله الذين اهتدوا إلى الإيمان هدى بما ينزل عليهم من الآيات، عوضا مما منعوا من زينة الدنيا كرامة لهم من ربهم، كما بسط للضالين فيها لهوانهم عليه .

ومجمل هذا - إن من كان فى الضلالة من الفريقين يمهله الله وينفس له فى حياته ليزداد فى الإثم والغىّ ويجمع له عذاب الدارين ، ومن كان فى الهداية منهما يزيد الله فى هدايته ويجمع له خيرى السعادتين .

(والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا) أى والطاعات التى بها تنشرح الصدور ، وتستنير القلوب ، وتصل إلى القرب من الله ، ونيل رضوان - خير عند ربك منفعة وعاقبة مما متع به أولئك الكفرة من النعم الفانية التى يفخرون بها من مال وولد وجاه ومنافع تحصل منها ، فإن عاقبة الأولين السعادة الأبدية ، وعاقبة أولئك الحسرة الدائمة والعذاب المقيم .

وخلاصة هذا — إن الطاعات التى يبقى ثوابها لأهلها خير عند ربهم جزاء وخير عاقبة من مقامات هؤلاء المشركين بالله وأنديتهم التى بها يفخرون على أهل الإيمان فى الدنيا .

أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) .

شرح المفردات

أطلع الغيب ؟ من قولهم اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه : أى أظهر له علم الغيب ؟ عهدا : أى عملا صالحا ، كلا : كلمة زجر وتنبيه إلى الخطأ ، سنكتب مايقول أى سنظهر له أنا كتبنا ، ونمد له من العذاب : أى سنطيل له العذاب الذى يستحقه ونرثه ما يقول : أى نسلب ذلك منه بموته ونأخذه أخذ الوارث ما يرثه ، والمراد بما يقول مدلوله ومصداقه ، وهو ما أوتيه فى الدنيا من المال والولد ، فردا : أى لا يصحبه مال ولا ولد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على صحة البعث ثم أورد شبه المنكرين له وأجاب عنها بما فيه مقنع لكل ذى لب — قفى على ذلك بذكر مقالتهم التى قالوها استهزاء وطعنا فى القول بالحشر والبعث .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى والطبرانى وابن حبّان عن خبّاب بن الأرتّ قال : « كنت رجلا قينا (حدادا) وكان لى على العاص بن وائل دَين فأتيته أتقاضاه فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث ، قال فإنى إذا مِتُّ ثم بعثت جئتنى ولى ثمَّ مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله تعالى : « أَفَرَأَيْتَ الآية » .

الإيضاح

(أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالا وولدا) أى انظر إلى حال هذا الكافر واعجب من مقالته الشنيعة وجرأته على الله ، إذ قال لأعطين فى الآخرة مالا وولدا .

ولما كان ما ادعاه لاعلم له به إلا بأحد أمرين — الاطلاع على الغيب أو اتخاذ العهد — ولم يحصل له واحد منهما ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ؟) أى إن ما ادعى أنه سيكون ، لايعلم إلا بأحد الأمرين : إما علم الغيب ، وإما عهد من عالم الغيب ، فبأيهما هو قد وصل إليه ؟ .

وقصارى ذلك — أو قد بلغ من عظم شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذى انفرد به الواحد القهار ، أم أعطاه الله عهدا موثقا وقال له : إن ذلك كائن لامحالة ؟ .

ثم زاد فى تأكيد خطئه وهدده بقوله :

(كلا سنكتب ما يقول ونمدّ له من العذاب مدّا) أى ليس الأمر كذلك ، ما اطلع على الغيب فعلم صدق ما يقول وحقيقة ما يذكر ، ولا اتخذ عند الرحمن عهدا موثقا بذلك ، بل كذب وكفر بربه ، وسنظهر له أننا كتبنا قوله ، ونزيده من العذاب فى جهنم بقيله الكذب والباطل فى الدنيا زيادة على كفره بالله وتكذيبه برسوله .

(ونرثه ما يقول ويأتينا فردا) أى ونسلبه ما عنده من المال والولد ونأخذه منه أخذ الوارث ما يرث ، ويأتينا إذ ذاك فردا لايصحبه مال ولا ولد مما كان له فى الدنيا.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا (٨٧)

شرح المفردات

العز : المنعة والقوة ، سيكفرون : أى سيجحدون . ضدّا : أى أعداء وأعوانا عليهم ، والأزّ والهز والاستفزاز : شدة الإزعاج ؛ والمراد الإغراء على المعاصى والتهييج

لها بالتسويلات ، وتحبيب الشهوات ، فلا تعجل عليهم : أى فلا تطلب الاستعجال بهلاكهم ، الوفد والوفود والأوفاد : واحدهم وافد ، وهم القوم يقدمون على الملوك يستنجزون الحوائج ، والمراد يقدمون مكرمين مبجلين ركبانا ، إلى الرحمن : أى إلى دار كرامته وهى الجنة ، وردا : أى مشاة مهانين باستخفاف واحتقار كأنهم نعم تساق إلى الماء ، والمراد بالعهد شهادة أن لا إله الا الله والتبرى من الحول والقوة وعدم رجاء أحد إلا الله

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكار المشركين للبعث مع قيام الدليل على إمكانه بما يشاهد من أمر الخلق فى النشأة الأولى ـ أردف ذلك بالرد على عباد الأصنام الذين اتخذوا أصنامهم آلهة ليعتزوا بهم يوم القيامة عند ربهم ، ويكونوا شفعاء لهم لديه ، فبيّن أنهم سيكونون لهم أعداء ، وأنه ما جرأهم على تلك الغواية إلا وسوسة الشيطان لهم ، ثم طلب إلى رسوله ألا يستعجل المشركين فإنما هى أنفاس معدودات ثم يهلكون ، ثم ذكر ما يحوط المؤمنين من الكرامة حين وفودهم إلى ربهم ، وما يحيق بالمشركين من الإهانة حين يردون عليه .

الإيضاح

(واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) أى واتخذ المشركون من قومك أيها الرسول ـ آلهة يعبدونهم من دون الله ، ليعتزوا بهم ويجعلوهم شفعاء عند ربهم يقربونهم إليه .

(كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّا) أى ليس الأمر كما ظنوا وأملوا فى أنها تنقذهم من عذاب الله وتنجيهم منه ، بل ستجحد الآلهة عبادتهم إياهم وينطق الله من لم يكن ناطقا منهم ، فيقولون ما عبدتمونا كما قال سبحانه :

« وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ » وقال : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » وقال حاكيا عنهم : « مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » ويكونون أعداء لهم وأعوانا عليهم إذ يلعنونهم ويتبرءون منهم .

وبعد أن ذكر سبحانه ما لهؤلاء الكفار مع آلهتهم فى الآخرة ، ذكر ما لهم مع الشياطين فى الدنيا ، وأنهم يتولونهم وينقادون لهم فقال :

(ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّا) أى ألم تعلم أنا سلطنا الشياطين على الكافرين ومكناهم من إضلالهم ، فهم يغرونهم بالمعاصى ، ويهيجونهم على الوقوع فيها .

وخلاصة ما سلف — تعجيب رسوله صلى الله عليه وسلم مما حكته الآيات السالفة عن هؤلاء الكفرة من تماديهم فى الغى ، وانهماكهم فى الضلال ، وتصميمهم على الكفر بدون رادع ولا زاجر ، ومدافعتهم للحق مع وضوحه ، وتنبيه له إلى أن ذلك إنما كان بإضلال الشياطين وإغوائهم ، لا لقصور فى التبليغ .

وفى هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهوين للأمر على نفسه .

(فلا تعجل عليهم) بأن تطلب إهلاكهم وإبادتهم بعذاب الاستئصال حتى تطهر الأرض من خبائث أعمالهم .

ثم علل هذا النهى بأن حين هلاكهم قريب فقال :

(إنما نعدّ لهم عدّا) أى إنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس قليلة نعدها عدا ، وعن ابن عباس أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك . آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخول قبرك ـ وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأ الآية ثم قال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد :

إن الحبيب من الأحباب مختلَس ... لا يمنع الموت بواب ولا حرس
وكيف يفرح بالدنيا ولذتها ... فتى يعد عليه اللفظ والنفس

وقد أفصح عن هذا شاعر مصر أحمد بك شوقى فقال :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوانى

ثم بين سبحانه ما سيظهر فى ذلك اليوم من الفصل بين المتقين والمجرمين فى كيفية الحشر فقال :

(يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) أى واذكر أيها الرسول لقومك ، يوم نحشر المتقين إلى دار الكرامة ركبانا كما يفد الوافدون على أبواب الملوك ينتظرون إكرامهم و إنعامهم .

وقد أثر عن على أنه قال : والله ما يحشر الوفد على أرجلهم ، ولا يساقون سوقا ولكنهم يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلها ، وعليها رحال الذهب ، وأزمتها الزبرجد ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة ــ وهذا تمثيل لحالهم فى عزهم وعظمتهم وإكرام ربهم لهم .

(ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) أى ونسوق الكافرين بالله إلى جهنم مشاة قد تقطعت أعناقهم من العطش ، فهم كالدواب التى ترد الماء .

(لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) أى لا يملك العباد الشفاعة إلا من اتخذ عهدا عند الله بأن أعد لها عدتها فكان فى الدنيا هاديا مصلحا ، فيكون فى الآخرة شافعا مشفعا ، لاجرم أن ينالها فى الآخرة على مقدار هدايته فى الدنيا ، فالشفاعة حينئذ لاتكون إلا للأنبياء والعلماء والشهداء على مقدار أتباعهم .

روى أن ابن مسعود قرأ هذه الآية ثم قال : أَتَّخِذُ عند الله عهدا ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقم ، قالوا يا أبا عبد الرحمن فعلِّمْنا، قال: قولوا «اللهم فاطر السموات الأرض عالم الغيب والشهادة ، إنى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا ألا تكلنى إلى عمل يقربنى من الشر و يباعدنى من الخير ، و إنى لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لى عندك عهدا تؤديه إلىّ يوم القيامة ، إنك لاتخلف الميعاد» .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أدخل على مؤمن سرورا فقد سرنى ، ومن سرنى فقد اتخذ عند الرحمن عهدا فلا تمسه النار إن الله لا يخلف الميعاد » ، وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئا جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منها شيئا فليس له عند الله عهد ، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه » .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) .

شرح المفردات

جئتم : أى فعلتم ، والإدّ (بالكسر والفتح) المنكر العظيم ، والإدة : الشدة يقال أدّنى الأمر وآدنى : أثقلنى وعظم علىّ ، والتفطر : التشقق ، وتخر : تسقط وتنهدم ، دعوا : أى نسبوا وأثبتوا ، قال شاعرهم :

إنا بنى نهشل لا ندّعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

عبدا : أى منقادا خاضعا كما يفعل العبيد ، أحصاهم : عدهم وأحاط بهم ، وعدهم عدّا : أى عد أشخاصهم ، فردا : أى منفردا لاشىء معه من الأنصار والأتباع .

المعنى الجملى

بعد أن رد على عبدة الأوثان وأثبت بقاطع الأدلة أنهم فى ضلالهم يعمهون ، وأنهم عن الحق معرضون ـ أردف ذلك بالرد على من أثبت له الولد كاليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، والمشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

الإيضاح

(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدّا .) أى وقال الكافرون بالله : إن للرحمن ولدا ، لقد جئتم أيها القائلون بمقالكم هذا شيئا منكرا عظيما يدل على الجرأة على الله وكمال القِحَة عليه سبحانه ، وإنه ليغضبه أشد الغضب ، ويسخطه أعظم السخط .

(تكاد السموات يتفطرن منه) أى إنه لعُظْمه تكاد السموات يتشققن منه لشدة هوله وعظم شأنه ، وكما لاينفع مع الشرك إحسان المشرك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين .

(وتنشق الأرض) أى تخسف بهم .

(وتخر الجبال هدّا) أى تسقط وتنهد هدا ، فتنطبق عليهم ، روى عن ابن عباس أنه قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه لعظمة الله وكماله .

وقصارى ذلك — إن هول هـذه الكلمة الشنعاء لو صوّر بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام ، وتفرقت أجزاؤها من شدتها .

وفى ذلك تنبيه إلى غضب الله تعالى على قائل هذه الكلمة ، وأنه لولا حلمه سبحانه لهلك .

ثم بين علة ذلك فقال :

(أن دعوا للرحمن ولدا) أى من أجل أنهم نسبوا لله اتخاذ الولد .

ثم نفى ذلك عن نفسه بقوله :

(وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) أى وما يليق به اتخاذ الولد ، لأن ذلك يقتضى التجانس بينهما وأن يكون كل منهما حادثا ، ولأن الولد إنما يكون للسرور به، والاستعانة به حين الحاجة ، وللذكر الجميل ، إلى نحو أولئك من المقاصد التى يتنزه عنها ربنا جل وعلا .

ثم زاد الإنكار توكيدا فقال :

(إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) أى ما من أحد من الملائكة والإنس والجن إلا وهو مملوك له سبحانه ، ينقاد لحكمه ، ويلتجئ إليه حين الحاجة ، ويخضع له خضوع العبد لسيده .

(لقد أحصاهم) أى لقد حصرهم وأحاط بهم ، فهم تحت أمره وتدبيره ، يعلم ما خفى من أحوالهم وما ظهر ، لا يفوته شىء منها .

(وعدّهم عدا) أى وعد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وأقوالهم ، فكل شىء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة .

(وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) أى وكل امرئ منهم يأتيه يوم القيامة وحيدا منفردا عن الأهل والأنصار ، منقطعا إليه تعالى ، محتاجا إلى معونته ورحمته .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) .

شرح المفردات

الود : المودة والمحبة ، بلسانك : أى بلغتك ، واللّدّ : واحدهم ألد ، وهو الشديد الخصومة ، وركزا : أى صوتا خفيا .

المعنى الجملى

بعد أن فصل سبحانه أحوال الكافرين فى الدنيا والآخرة ، وبالغ فى الرد عليهم – ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين ، وبين أنه سبحانه سيغرس محبتهم فى قلوب عباده ، وبعد أن استقصى فى السورة دلائل التوحيد والنبوة والحشر وردّ فيها على فرق المبطلين – بين أنه يسر ذلك بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم ليبشر به المتقين وينذر به قوما من المشركين ذوى الجدل والمماراة .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا) أى إن الذين آمنوا بالله وصدّقوا برسله وبما جاءوهم به من عنده وعملوا به فأحلوا حلاله وحرموا حرامه ، سيجعل لهم الله محبة فى قلوب عباده المؤمنين .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى فى جمع كثير عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله تعالى عبدا يقول لجبريل : إنى قد أحببت فلانا فأحبه ، فينادى فى السماء ، ثم تنزل له المحبة فى الأرض ، فذلك قول الله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية » .

وأخرج ابن مردويه والديلمى عن البَرَاء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه : « قل اللهم اجعل لى عندك عهدا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين ودا ، فأنزل الله سبحانه الآية » .

وكان هرم بن حيّان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وخلاصة ذلك — سيجعل الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات مودة فى القلوب يزرعها لهم من غير تودد منهم ، ولا تعرّض للأسباب التى يكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف .

وقد خصهم الله بهذه الكرامة كما قذف الرعب فى قلوب أعدائهم منهم إعظاما لهم و إجلالا لمكانهم .

ثم ذكر الحكمة فى إنزال القرآن بلغة العرب فقال :

(فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدّا) أى فإنما سهلنا نزول القرآن بلغتك العربية لتقرأه على الناس وتبشر به من اتقى عقاب الله ، فأدى فرائضه واجتنب نواهيه ، بأن له الجنة ، وتنذر به من عصاه من قريش ، وهم أهل اللدد والجدل بالهوى ممن لا يقبل حقا ، ولا يحيد عن باطل .

وقصارى ذلك — بلّغ هذا المنزّل و بشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه بلسانك العربى المبين ، ليسهل على الناس فهمه .

ثم ختم السورة بتلك العظة البالغة فقال :

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟)

أى وقد أهلكنا كثيرا من الأمم قبل هؤلاء المعاندين ، حين سلكوا فى خلاف مسلك هؤلاء ، وركبوا معاصى ، فهل تحس منهم أحدا فتراه وتعاينه أو تسمع له صوتا ؟ لا — إنهم بادوا وخلت منهم الديار ، وأقفرت المنازل ، وصاروا إلى دار لا ينفع فيها إلا صالح العمل ، و إن قومك لصائرون إلى مثل ما صاروا إليه ، إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك .

وفى هذا وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصر والغلبة على هؤلاء المشركين ووعيد لأولئك الكافرين الجاحدين ، وحث له على التبشير والإنذار .

وقصارى ذلك — إنا أهلكناهم ، فلم نبق منهم أحدا تراه ولا تسمع له صوتا خفيا ولا ظاهرا .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين .

خلاصة لما حوته السورة الكريمة من المقاصد

(١) دعاء زكريا ربه أن يهب له ولدا سريا مع ذكر الأسباب التى دعته إلى ذلك .

(٢) استجابة الله دعاءه وبشارته بولد يسمى يحيى لم يسم أحد من قبله بمثل اسمه .

(٣) تعجب زكريا من خلق ذلك الولد من أبوين : أمّ عاقر وأب شيخ هرم .

(٤) طلبه العلامة على أن امرأته حامل .

(٥) إيتاء يحيى النبوة والحكم صبيا .

(٦) ما حدث لمريم من اعتزالها لأهلها ، وتمثل جبريل لها بشرا سويا ، والتجائها إلى الله أن يدفع عنها شر هذا الرجل ، وإخباره لها أنه ملك لا بشر .

(٧) حملها بعيسى عليه السلام وانتباذها مكانا قصيا حتى لا يراها الناس وهى على تلك الحال .

(٨) نداء عيسى لها حين الولادة ، وأمرها بهزّ النخلة حتى تساقط عليها رطبا جنيا .

(٩) مجيئها بعيسى ومقابلتها لقومها وهى على تلك الحال وقد انهال عليها اللوم والتعنيف ، وأنها فعلت مالم يسبقها إليه أحد من تلك الأسرة الشريفة التى اشتهرت بالصلاح والتقوى .

(١٠) كلام عيسى وهو فى المهد تبرئة لأمه ووصفه نفسه بصفات الكمال من النبوة والبركة والبر بوالديه وأنه لم يكن جبارا متكبرا على خالقه .

(١١) اختلاف النصارى فى شأنه .

(١٢) قصص إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر ووصفه له بالجهل وعدم التأمل فى المعبودات التى يعبدها من دون الله ثم تحذيره إياه بسوء مغبة أعماله ، وردّ أبيه عليه مهددا متوعدا .

(١٣) هبة الله له إسحٰق و يعقوب ، و إيتاؤهما الحكم والنبوة .

(١٤) قصص موسى ومناجاته ر به فى الطور ، والامتنان عليه بجعل أخيه هرون وزيرا ونبيا .

(١٥) قصص إسماعيل ووصف الله له بصدق الوعد و إقامة الصلاةو إيتاء الزكاة .

(١٦) قصص إدريس عليه السلام ووصف الله له بأنه صديق نبى رفيع القدر عظيم المنزلة عند ر به .

(١٧) مجىء خلْف من بعد هؤلاء الأنبياء أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

(١٨) وعد الله لمن تاب وآمن وعمل صالحا بجنات لا لغو فيها ولا تأثيم .

(١٩) إن جبريل لاينزل إلى الأنبياء إلا بإذن ر به .

(٢٠) إنكار المشركين للبعث استبعادا له ، ورد الله عليهم بأنه خلقهم من قبل ولم يكونوا شيئا .

(٢١) الإخبار بأن الله يحشر الكافرين يوم القيامة مع قرنائهم من الشياطين ثم يحضرهم حول جهنم جثيا ، ثم بدئه بمن هو أشد جُرما والله أعلم بهم .

(٢٢) الإخبار بأن جميع الخلق ترد على النار ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا .

(٢٣) بيان أن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن فخروا على المؤمنين بأنهم خير منهم مجلسا وأكرم منهم مكانا .

(٢٤) تهديدهم بأنه أهلك كثيرا ممن كان مثلهم فى العتو والاستكبار ، وأكثر أثاثا ورياشا .

(٢٥) بيان أن الله يمد للظالم ويمهله ، ليجترح من السيئات ما شاء ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

(٢٦) النعى على المشركين باتخاذ الشركاء ، وأنهم يوم القيامة سيكونون لهم أعداء .

(٢٧) نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن طلب تعجيل هلاك المشركين ، إذ أن حياتهم مهما طالت فهى محدودة معدودة .

(٢٨) التفرقة بين حشر المتقين إلى دار الكرامة ، وسوق المجرمين إلى دار الخزى والهوان .

(٢٩) النعى الشديد على من ادعى أن لله ولدا .

(٣٠) بيان أن الله قد أنزل كتابه بلسان عربى مبين ، ليبشر به المتقين ، وينذر به الكافرين ذوى اللدد والخصومة .

سورة طه

هى مكية إلا آيتى ١٣٠ ، ١٣١ فمدنيتان ، وعدد آيها خمس وثلاثون بعد المائة نزلت بعد سورة مريم .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه لما ذكر فى سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين ، بعضها بطريق البسط والإطناب كقصص زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وبعضها بين البسط والإيجاز كقصص إبراهيم عليه السلام ، وبعضها موجز مجمل كقصة موسى عليه السلام ، ثم أشار إلى بقية النبيين بالإجمال ـ ذكر هنا قصة موسى التى أجملت فيما سلف ، واستوعبها غاية الاستيعاب ، ثم فصل قصة آدم عليه السلام ، ولم يذكر فى مريم إلا اسمه فحسب .

(٢) إنه روى عن ابن عباس أن هذه السورة نزلت بعد سالفتها .

(٣) إن أول هذه السورة متصل بآخر السورة السابقة ومناسب له فى المعنى ، إذ ذكر فى آخر تلك أنه إنما يسّر القرآن بلسانه العربى المبين ليكون تبشيرا للمتقين وإنذارا للمعاندين ، وفى أوائل هذه ما يؤكد هذا المعنى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) .

شرح المفردات

لتشقى : أى لتتعب وتنصب ، تذكرة : أى تذكيرا وعظة ، يخشى : أى يخاف الله ، العلى : واحدها العليا مؤنثة الأعلى كالكبرى مؤنثة الأكبر ، والعرش : فى اللغة سرير الملك ، ويراد به فى لسان الشرع مركز تدبير العالم ، واستوى : استولى عليه قال شاعرهم :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

والثرى : التراب الندىّ ؛ والمراد هنا مطلق التراب ، وأخفى : أى من السر وهو ما أخطرته ببالك دون أن تتفوّه به بحال ، والأسماء : أى الصفات كما جاء فى قوله : « وَجَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ » أى صفوهم ، والحسنى : مؤنثة الأحسن .

المعنى الجملى

روى مقاتل أن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدى والنضر بن الحرث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك ، فقال عليه السلام : بل بعثت رحمة للعالمين ، قالوا بل أنت تشقى ، فأنزل الله الآية ردا عليهم وتعريفا لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن دين الإسلام هو السبيل إلى نيل كل فوز ، وسبب إدراك كل سعادة ، وما فيه المشركون هو الشقاء بعينه .

الإيضاح

(طه) تقدم أن قلنا إن أصح الآراء فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور أنها حروف تنبيه كألا ويا ونحوهما مما يذكر فى أوائل الجمل لقصد تنبيه المخاطب إلى مايلقى بعدها لأهميته وإرادة إصغائه إليه نحو ما جاء فى قوله تعالى : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » وينطق بأسمائها حين القراءة فيقال (طا.ها)

(ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) أى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب وتغلو فى مكابدة الشدائد حين تحاور أولئك القوم الطغاة ، وتقاول أولئك العتاة ، وتفرط فى الأسى على كفرهم ، وتتحسر على عدم إيمانهم ، بل أنزلناه عليك لتبلغ وتذكر وقد فعلت ، فلا عليك إن لم يؤمنوا بعد هذا .

ونحو الآية قوله : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً » .

وقصارى ذلك — إنا أنزلناه عليك لتذكر به ، فمن آمن وأصلح فلنفسه ، ومن كفر فلا يحزنك كفره ، إن عليك إلا البلاغ ، ولست عليهم بمسيطر .

وفى هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم عما كان يعتريه من التعب والنصب حين كان يدعو أولئك القومَ ذوى اللدد والخصومة ، ولا عجب فالكلام صنعتهم وبه يتفاخرون ، وعليه يعتمدون ، إذ يقرعون الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، وهو لديهم أمضى من السنان .

(إلا تذكرة لمن يخشى) أى ما أنزلناه عليك لشقائك ، ولكن أنزلناه تذكيرا لمن يخشى الله تعالى ويتأثر بالإنذار لرقة قلبه ، وحسن استعداده ، وقد كان عليه السلام يعظهم به بتلاوته وتفسير ما جاء به من مقاصد وأغراض ومصالح لهم فى دنياهم وآخرتهم .

وخص الخاشعين بالذكر مع أن القرآن تذكرة للناس كلهم ، من قِبَل أن غيرهم كأنه لاوجود له لعدم انتفاعه به .

وخلاصة ذلك — حسبك ماحملته من متاعب التبليغ والتبشير والإنذار ، ولا تنهك بدنك بحملهم على قبول الدعوة والاستجابة لأمرك ، فإن ذلك من شأننا لا من شأنك ، و بيدنا لا بيدك .

(تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) أى نزل عليك تنزيلا من ربك

الذى خلق الأرض والسموات العلى ، والمراد بهما ما فى جهة السفل والعلو ، ويستتبع ذلك كل مايتعلق بهما .

(الرحمن على العرش استوى) أى هو الرحمن الذى على عرشه ارتفع وعلا ، وقد تقدم إيضاح هذا فى سورة الأعراف ببسط وإطناب .

(له مافى السموات ومافى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) أى له مافى السموات والأرض وما بينهما ملكا وتدبيرا وتصرفا ، وله ماواراه التراب وأخفاه من المعادن والفِلزّات وغيرها .

(وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) أى وإن تجهر بدعاء الله وذكره ، فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك ، لأنه يعلم ما أسررته إلى غيرك ولم ترفع به صوتك ، وأخفى منه مما تخطره ببالك دون أن تتفوّه به .

والدعاء والذكر باللسان إنما شرعا ليتصور الداعى والذاكر المعنى فى نفسه ، لاليسمع صوته ، ولا فضل للنطق والجهر به إلا فى منع الشواغل الشاغلة عن حضور المعانى فى القلوب كما قال تعالى : « وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » ونحو الآية قوله : « وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ » .

(الله لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى) أى إن ماذكر من صفات الكمال التى تقدمت ليس بأهل لها إلا ذلك المعبود الحق الذى لارب غيره ولا إله سواه ، وله الصفات الحسنى الدالة على التقديس والتمجيد ، والأفعال التى هى غاية فى الحكمة والسداد .

قصص موسى عليه السلام

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) .

شرح المفردات

الحديث: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو فى منامه، والمكث : الإقامة ، آنست : أى أبصرت ، آتيكم : أجيئكم ، بقبس : أى بشعلة مقتبسة على رأس عود ونحوه ، هدى : أى هاديا يدلنى على الطريق ، طوى: (بالضم) منونا : اسم لذلك الوادى ، اخترتك : أى اصطفيتك ، لذكرى : أى لتكون ذاكرا لى ، أكاد أخفيها : أى أبالغ فى إخفائها ولا أظهرها بأن أقول إنها آتية ، هواه : أى ماتهواه نفسه ، فتردى : أى فتهلك .

المعنى الجملى

بعد أن عظم سبحانه كتابه والرسول الذى أنزل عليه بما كلفه به من التبليغ بالإنذار والتبشير ــ أتبع ذلك بما يقوى قلبه من قصص الأنبياء وما فعلته أممهم معهم وكيف كانت العاقبة لهم والنصر حليفهم ، ففى هذا سلوى له وتأسٍّ بهم فيما قاموا به من الذود عن الحق مهما أصابهم من العنت والأذى من جراء الدعوة إليه ، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله : « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » .

وبدأ بقصص موسى لأن محنته كانت أشد فقد تحمل من المكاره ما تنوء به راسيات الجبال، وقابل ذلك بعزم لا يفتر وبقوة تفل الحديد .

الإيضاح

(وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا) أى وهل بلغك كيف كان ابتداء الوحى إلى موسى وتكليم الله إياه .

ومن سنن العربية أنه إذا أريد تثبيت الخبر وتقرير الجواب فى نفس المخاطب أن يلقى إليه بطريق الاستفهام، فيقول المرء لصاحبه : هل بلغك كذا وكذا، فيتطلع السامع إلى معرفة الخبر ويصغى إليه أتم الإصغاء .

روى أن موسى عليه السلام استأذن شعيبا فى الرجوع إلى والدته فأذن له بعد أن قضى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم، فخرج وسار قاصدا مصر بعد أن طالت غيبته عنها فقد زادت على عشر سنين ومعه زوجه، فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية ذات ثلج وبرد وسحاب وضباب وظلام، ونزل منزلا بين شعاب وجبال، وجعل يقدح بزند كان معه ليورى نارا، فلم تور المِقْدحة شيئا، وبينما هو يزاول ذلك ويعالجه إذ رأى نارا من بُعْد عن يسار الطريق .

(فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) أى فقال المرأة وولده وخادمها مبشرا لهم : أقيموا مكانكم إنى أبصرت نارا وسأذهب إليها لعلنى أجيئكم منها بشعلة مقتبسة على رأس عود أو نحوه، أو أجد هاديا يدلنى على الطريق، وجاء فى سورة القصص : « لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » .

وقصارى ذلك — إنه قال لأهله أقيموا مكانكم — وإنى قد رأيت نارا، فإما أن آتيكم منها بقبس تشعلون منه نارا تصطلون بها، وإما أن أجد دليلا يرشدنى إلى الطريق المسلوك وكان قد ضل عنه .

(فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك) أى فلما خرج موسى نحوها وجد نارا بيضاء تتقد كأضوإ مايكون فى شجرة خضراء ، فلا ضوء النار يغير خضرتها ، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار - وهناك نودى ياموسى ، قال من المتكلم ؟ قال إنى أنا ربك .

ثم أمره أن يخلع نعليه احتراما للبقعة المقدسة فقال :

(فاخلع نعليك) إذ أن الحفوة أقرب إلى التواضع وحسن الأدب ، ومن ثم طاف السلف الصالح بالكعبة حافين ؛ ثم بين سبب الأمر بذلك بقوله :

(إنك بالواد المقدس طوى) أى لأنك بالوادى المطهر المسمى بطوى فاخلعهما ليحصل للقدمين بركته .

(وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) أى وأنا اصطفيتك من قومك للنبوة والرسالة، فعليك أن تسمع لما أوحيه إليك ، ونحو الآية قوله : « إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِى وَبِكَلاَمِى » .

وقصارى ذلك — لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له واجعل كل خاطرك مصروفا إليه ، وقد قالوا : إن من أدب الاستماع سكون الجوارح والأعضاء وغض البصر والإصغاء بالسمع وحضور القلب والعزم على العمل .

وقد بين سبحانه أهم مايوحى إليه بقوله :

(إننى أنا الله لا إله إلا أنا) أى إن أول الواجب على المكلف أن يعلم أنه لاإله إلا الله وحده لاشريك له .

(فاعبدنى) أى وإذ كنت أنا الإله حقا ولا معبود سواى ، فخصنى بالعبادة والتذلل والانقياد فى جميع ما كلفتك به .

(وأقم الصلاة لذكرى) أى أدّ الصلاة على الوجه الذى أمرتك به مقوّمة الأركان مستوفاة الشرائط ، لتذكرنى فيها وتدعونى دعاء خالصا لايشوبه إشراك ولا توجه إلى سواى .

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ، لما لها من الفضل على سواها ، إذ فيها ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذلك، ومن ثم تنهى عن الفحشاء والمنكر.

أخرج الترمذى وابن ماجه فى جماعة آخرين من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نسى صلاة فيصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : أقم الصلاة لذكرى » .

ثم بين السبب فى وجوب العبادة وإقامة الصلاة فقال :

(إن الساعة آتية أكاد أخفيها) أى إن الساعة آتية لامحالة ، وإنى أكاد أخفيها من نفسى ، فكيف يعلمها غيرى من الخلق ، وقد جاء هذا على سنن العرب يقول أحدهم إذا بالغ فى كتمان السر : كتمت سرى من نفسى ، يريد أنه أخفاه غاية الإخفاء .

وفائدة إخفائها التهويل والتخويف ، فإنهم إن لم يعلموا متى تقوم الساعة يكونوا منها على حذر ، ولمثل تلك الفائدة أخفى الله وقت الموت ، لأن المرء إذا علم وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصى إلى أن يقرب ذلك الحين فيتوب ويصلح عمله ، وقد وعد الله بقبول توبته ، وهذا يكون كالإغراء على المعصية ، لكنه إن لم يعلم حين منيته كان منها على حذر ، ولا يزال على قدم الخوف والوجل ، فيترك المعاصى ويتوب منها فى كل حين خوف معاجلة الموت .

(لتجزى كل نفس بما تسعى) أى إن الساعة آتية لامحالة ليجزى كل عامل بعمله « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

ثم خاطب سبحانه موسى محذرا له فقال :

(فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى) أى فلا يردنّك ياموسى عن التأهب للساعة من لايقرّ بقيامها ولا يصدق بالبعث ، ولا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ، بل يركب رأسه ويخالف أمر ربه ونهيه ، فإنك إن فعلت ذلك وقعت

فى هاوية الخذلان والعصيان ، وهذا الخطاب من وادى قولهم (إياكِ أعنى واسمعى ياجاره) فالمراد بمثل هذا الخطاب جميع المكلفين كما تقدم غير مرة .

وخلاصة ذلك — لاتتبعوا سبل من كذب بالساعة وأقبل على لذاته فى دنياه وعصى أمر ربه واتبع هواه ، فإن من سلك سبيلهم خاب وخسر كما قال: « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(١٨)قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى(١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) .

شرح المفردات

أتوكأ عليها : أعتمد عليها فى المشى والوقوف على رأس القطيع ونحو ذلك ، وأهش بها : أى أخبط بها ورق الشجر ، مآرب : أى منافع واحدها مأربة (مثلثة الراء) والحية : تطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى من هذا النوع ، والثعبان : العظيم من الحيات ، والجانّ : الصغير منها ، سيرتها الأولى : أى حالها الأولى وهى كونها عصا ، يقال لكل من كان على أمر فتركه وتحول عنه ثم راجعه : عاد فلان سيرته الأولى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مناجاته لموسى حين رأى النار التى فى الشجرة ، واختياره نبيا وإيحاءه إليه أن لاإله إلا هو ، وأمره بإقامة الصلاة لما فيها من ذكره ، وتخصيصه

بالعبادة دون سواه ، ثم إخباره بأن الساعة آتية لامحالة ليجزى المحسن بإحسانه ، والمسىء بما دسى به نفسه جزاء وفاقا .

قفى على ذلك بذكر البرهانات التى آتاها موسى دلالة على نبوته وتصديقا له على رسالته ، فبدأ بذكر العصا التى انقلبت حية تسعى حين ألقاها من يده ، وكان قد سأله عنها استجماعا لقلبه ، وتهدئة لروعه فى هذا المقام الرهيب ، وإعلاما بما سيكون لها بعد من عظيم الشأن وجليل المنافع والمزايا التى لم تكن تدور بخلده عليه السلام .

الإيضاح

(وما تلك بيمينك ياموسى) سأله سبحانه عما فى يده وهو العليم به ، ليبين له أنه سيجعل من تلك الخشبة التى ليس لها خطر كبير ولا منفعة عظيمة ـ جليل المزايا والفوائد التى لم تكن تخطر له على بال كانقلابها حية تسعى ، وضرب البحر بها حتى ينفلق ، وضرب الحجر حتى يتفجر منه الماء ، ولينبهه بهذا الطريق إلى كمال قدرته ، وبالغ عظمته ، إذ أظهر من أحقر الأشياء هـذه المزايا الجليلة ـ على سنن الناس فى تخاطبهم إذا أراد أحدهم أن يظهر من الشىء الحقير شيئا شريفا ، أن يأخذه ويعرضه على النظارة ويقول لهم : ماهذا ؟ فيقولون هو كذا ، فيفيض فى شرح ماله من فائق المزايا وجليل المنافع التى لم تكن تدور بخلدهم ، ولم تخطر ببالهم ـ فأجابه موسى معددا ما لها من فوائد ومزايا على حسب ما وصلت إليه معرفة البشر .

(قال هى عصاى) وبهذا تم الجواب ، ولـكن موسى ذكر مالها من فوائد ، إذ أحب مكالمة ربه فجعل ذلك كالوسيلة لهذا الغرض ، فبين لها فائدتين على سبيل التفصيل ، وواحدة على سبيل الإجمال فقال :

(١) (أتوكأ عليها) أى أعتمد عليها إذا مشيت أو تعبت أو وقفت على رأس القطيع من الغنم .

(٢) (وأهش بها على غنمى) أى أخبط ورق الشجر بها ليسقط على غنمى فتأكله .

(٣) (ولى فيها مآرب أخرى) أى ولى فيها مصالح ومنافع أخرى غير ذلك كحمل الزاد والسقى وطرد السباع عن الغنم ، وإذا شئت ألقيتها على عاتقى ، فعلقت بها قوسى وكنانتى ومخلاتى وثوبى ، وإذا وردت ماء قصر عنه رشائى وصلته بها .

وقد أجمل عليه السلام فى المآرب رجاء أن يسأله ربه عنها ، فيسمع كلامه مرة أخرى ويطول الحديث بهذا .

وبعد أن ذكر هذه الجوابات أمره الله بإلقائها لتتبين لها فوائد لم يعرفها موسى .

(قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى) أى قال له ربه : ألقها يا موسى لترى من شأنها ما ترى ، فألقاها فإذا هى ثعبان عظيم ينتقل من مكان إلى آخر مسرعا وجاء تشبيهها بالجان وهو الصغير من الحيات فى قوله (فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ) لما ظهر لها من سرعة الحركة والقوة ، لا لصغرها .

ثم أمره ربه بأخذها وهى على تلك الحال دون خوف ولا ذعر .

(قال خذها ولا تخف) أى قال له ربه : خذها بيمينك ولا تخف منها .

وهذا الخوف مما تقتضيه الطبيعة البشرية حين مشاهدة الأمر الجلل الذى لا يعرف له نظير ولا يدرك له سبب ، ولا ينقص ذلك من جلالة قدره عليه السلام .

ثم علل النهى عن الخوف بقوله :

(سنعيدها سيرتها الأولى) أى سنرجعها إلى الحال التى كانت عليها من قبل وهى العصوية ، فأقدم على ذلك برباطة جأش وثبات وعزم دون تردد ولا ذعر .

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩)

هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) .

شرح المفردات

الضم : الجمع ، وأصل الجناح للطائر ثم أطلق على اليد والعضد والجنب وهو المراد هنا ، والسوء : القبيح فى كل شىء ، ويراد به هنا البرص والطباع تنفر منه ، وآية أخرى : أى معجزة ثانية غير العصا ، طغى : أى تجاوز الحد فى عتوه وتجبره ، اشرح لى صدرى : أى وسعه لتحمل أعباء الرسالة ، ويسر لى أمرى : أى سهل لى ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة ، واحلل عقدة من لسانى : أى أزل ذلك التعقد والحبسة التى فى لسانى لئلا يستخف بى الناس وينفروا منى ولا يستمعوا لكلامى ، يفقهوا قولى : أى يفهموه ، وزيرا : أى معينا ، والأزر: القوة، يقال آزره أى قوّاه وأعانه ، وأشركه فى أمرى : أى اجعله شريكا لى فى النبوة والرسالة ، إنك كنت بنا بصيرا : أى عالما بأحوالنا لا نريد بالطاعة إلا رضاك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر المعجزة الأولى الدالة على نبوة موسى عليه السلام ، وعلى صدق رسالته وهى العصا وما صدر منها من الأفاعيل حين ألقاها من يده ، ثم عودتها سيرتها الأولى حين أخذها من الأرض — قفى على ذلك بذكر المعجزة الثانية التى آتاها إياه وهى معجزة اليد ، فإنه كان إذا وضع يده اليمنى إلى جنبه الأيسر تحت العضد ثم أخرجها أضاءت كشعاع الشمس تعشى البصر ، ثم بذكر أمره له بالذهاب إلى فرعون لتبليغ رسالة ربه ، ثم دعائه ربه أن يشرح له صدره ويسهل له أمره ، وأن يجعل له

أخاه هرون نبيا كى يشد أزره ويقوى على تبليغ الرسالة ، ويتعاونا على ذكر الله وعبادته .

الإيضاح

(واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء) أى أدخل يدك اليمنى من طوق مِدْرعتك (قميصك) واجعلها تحت الإبط اليسرى تخرج بيضاء لامعة من غير برص ولا عيب ، روى أن موسى كان إذا أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها تتلألأ كأنها فلقة قمر ، قال الحسن البصرى : أخرجها والله كأنها مصباح ، فعلم أنه قد لقى ربه .

(آية أخرى) أى وهذه علامة أخرى غير الآية التى أريناكها من قبلُ من تحويل العصا حية تسعى - تدل على صدقك فيما بعثناك به من الرسالة لمن بعثناك إليهم .

(لنريك من آياتنا الكبرى) أى افعل ذلك كى نريك بعض أدلتنا على عظيم سلطاننا وكامل قدرتنا وبديع تصرفنا فى ملكوت السموات والأرض .

وبعد أن أظهر له هذه الآيات أمره بالذهاب إلى فرعون المتكبر الجبار فقال :

(اذهب إلى فرعون إنه طغى) أى اذهب إليه بما رأيته من آياتنا الكبرى ، وادعه إلى عبادتى ، وحذره نقمتى ، فإنه قد تجاوز قدره وتمرد على ربه حتى تجاسر على دعوى الربوبية ، وقال : أنا ربكم الأعلى .

قال وهب بن منبه : قال الله لموسى : اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى فإنك بعينى وسمعى ، وإن معك يدى ونصرى ، وإنى ألبستك جبة من سلطانى تستكمل بها القوة فى أمرك ، أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقى ، بطر نعمتى ، وأمن مكرى ، وغرته الدنيا حتى جحد حقى ، وأنكر ربوبيتى ، أقسم بعزتى ، لولا الحجة التى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ، ولكن هان علىّ وسقط من

عينى ، فبلغه رسالتى ، وادعه إلى عبادتى ، وحذّره نقمتى ، وقل له قولا لينا ، لا يغتر بلباس الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ، لايطرف ولا يتنفس إلا بعلمى ، قال : فسكت موسى سبعة أيام لايتكلم حتى جاءه ملَك فقال : أجب ربك فيما أمرك ، فحينئذ .

(قال رب اشرح لى صدرى) أى رب وسع لى صدرى ، لأعى عنك ما تودعه فيه من وحيك ، وأجترئ به على خطاب فرعون ، فإنك قد كلفتنى أمرا عظيما لايحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح ، فقد بعثتنى إلى أعظم ملِك على وجه الأرض وأجبرهم وأشدهم كفرا وأكثرهم جندا وأعمرهم ملكا وأطغاهم وأبلغهم تمردا ، وقد بلغ من تمرده أنه لايعلم إلها غيره .

وخلاصة ذلك — اجعلنى رابط الجأش حتى لا أخاف سواك ، ولا أرهب غيرك حين تبليغ رسالتك ، وكن عونى ونصيرى ، وإلا فلا طاقة لى بذلك .

(ويسر لى أمرى) أى سهل علىّ القيام بما تكلفنى به من تبليغ الرسالة ، وتحمّلنى من الطاعة ، وأفض علىّ من القوة مايفى بالعمل على نشر الدين ، وإصلاح حال الخلق .

(واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) أى وأطلق لسانى بالنطق ليفهموا قولى حين تبليغ الرسالة ، وكان فى لسانه حُبْسة تمنعه من كثير من الكلام ، وقد روى أن الحسين رضى الله عنه كان فى لسانه رُتَّة (حبسة) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن هذه ورثها من عمه موسى .

ولما كان التعاون على نشر الدين مع خلوص الود قربة عظيمة لله ـ طلب موسى المعاونة على ذلك فقال :

(واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى) أى واجعل لى عونا من أهل بيتى هرون أخى ، ليحمل معى أعباء الرسالة ، ويكون ظهيرا لى عند الشدائد ، وحلول المكاره ، ولمثل هذا قال عيسى عليه السلام « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن لى فى السماء وزيرين وفى الأرض وزيرين ، فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل ، واللذان فى الأرض أبو بكر

وعمر » . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إذا أراد الله بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ، إن نسى ذكّره ، وإن نوى خيرا أعانه ، وإن أراد شرا كفه ». وقال أنو شروان : لايستغنى أجود السيوف عن الصقل ، ولا أكرم الدواب عن السوط ، ولا أعلم الملوك عن الوزير .

وقد اختص هرون بأمور منها :

(١) الفصاحة ؛ لقول موسى هو أفصح منى لسانًا .

(٢) الرفق لقول هرون : يا ابن أمَّ لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى .

(٣) الوسامة والجمال و بياض اللون ، وكان موسى آدم اللون أقنى جعدا .

روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها خرجت تعتمر فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلا يقول : أىّ أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه ؟ قالوا لاندرى . قال : أنا والله أدرى ، قالت فقلت فى نفسى ، فى حلفه لايستثنى ، إنه ليعلم أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه ؟ قال موسى حين سأل لأخيه النبوة ، فقلت صدق والله.

ثم طلب موسى من ربه أن يشد به أزره فقال :

(اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) أى أحكم به قوتى ، واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها على الوجه الذى يؤدى إلى أحسن الغايات ، و يوصل إلى الغرض على أجمل السبل .

ثم حكى عنه سبحانه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال :

(كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) أى لكى ننزهك عما لايليق بك من الصفات والأفعال التى من بينها مايدعيه فرعون الطاغية، وفئته الباغية من الألوهية له ونذكرك وحدك ابتغاء مرضاتك ، دون أن نشرك معك غيرك أثناء أداء الرسالة ، ودعوة المردة الطغاة إلى الحق .

ولا شك أن التعاون فى الدعوة أنجع فى الوصول إلى المقصد من الانفراد ، فكل

من النبيّين يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يصدر عنه مثله فى حال الانفراد .

(إنك كنت بنا بصيرا) أى عليما بأحوالنا ، وأن ما طلبناه مما يفيدنا فى تحقيق ما كلفتنا به من إقامة مراسم الرسالة على أتم الوجوه وأكملها ، فإن هرون نعم العون على أداء ما أمرت به من نشر معالم الدين وكبح جماح الضالين ، وإرشادهم إلى حق اليقين .

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِى وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى (٣٩) إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (٤١) .

شرح المفردات

السؤل : بمعنى المسئول : أى المطلوب كالخبز بمعنى المخبوز ، مننّا : أى أنعمنا ، مرة أخرى : أى فى وقت آخر غير هذا الوقت ، أوحينا : أى ألهمنا كما جاء فى قوله « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » وقوله « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى » اقذفيه : أى ألقيه واطرحيه ، واليمّ : البحر . والمراد به هنا نهر النيل ، والساحل : الشاطىء ، ولتصنع على عينى : أى ولتربى وتغذى بمرأى منى وأنا مراعيك ومراقبك كما يرعى الرجل الشىء بعينيه دلالة على عنايته به ، يكفله :

أى يضمه إلى نفسه ، تقر عينها : أى تسر ، والغم : الكدر الناشئ من خوف شىء أو فوات مقصود ، والفتون : الابتلاء والاختبار بالوقوع فى المحن ثم تخليصه منها ، لبثت : أى أقمت ، مدين : بلد بالشام .

المعنى الجملى

اعلم أن موسى عليه السلام لما سأل ربه أمورا ثمانية وكان قيامه بما كلف به لايتم على الطريق المرضىّ إلا إذا أجابه إليها ـ لاجرم أجابه الله تعالى إلى ماطلب ، ليكون أقدر على الإبلاغ على الوجه الذى كلف به ، ثم ذكره بنعمه السالفة حين كانت أمه ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه ، فألهمها أن تصنع تابوتا وتضعه فيه وتلقيه فى النيل ففعلت ، فألقاه النيل فى الساحل ، فالتقطه آل فرعون وربوه فى منزلهم ، وألقى الله محبة فى قلوبهم له وصار كأنه ابنهم ، ثم ذكره بنجاته من القصاص حين قتل المصرى وهرب إلى مدين .

الإيضاح

(قال قد أوتيت سؤلك ياموسى) أى قال الله تعالى لموسى : قد أعطيتك جميع ما سألتنى عنه من شرح صدرك ، وتيسير أمرك ، وحل عقدة لسانك ، وجعل أخيك هرون وزيرا لك وشد أزرك به وإشراكه فى الرسالة معك .

(ولقد مننا عليك مرة أخرى) أى ولقد تفضلنا عليك من قبل بنعم كثيرة ، ومن راعى مصلحتك قبل سؤلك ، وأعطاك ماترجو ، أفيمنع عنك ماتريد بعد سؤالك؟ ومن رقى بك إلى مراتب الكمال، وصعد بك إلى أوج المعالى، وسما بك إلى درجات الرفعة ، ووكل إليك ذلك المنصب الخطير ، أفيليق به وهو الجواد الكريم أن يحجز عنك ماتؤمل مما أنت فى شديد الحاجة إليه لتبليغ رسالته ؟ .

وفى التعبير عن تلك النعم بالمنن إيماء إلى أنها إنما وصلت إليه بمحض التفضل والإحسان .

وقد عد سبحانه من تلك النعم ثمانيا فقال :

(١) (إذ أوحينا إلى أمك مايوحى. أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوّ لى وعدو له) أى واذكر حين ألهمنا أمك وأوقعنا فى قلبها عزيمة صادقة أن أمثل الطرق لخلاصك من فرعون وجبروته ، أن تضعك فى تابوت ـ صندوق ـ ثم تطرح هذا التابوت فى نهر النيل ، ففعلت فألقاك النهر فى الساحل ، فأخذك فرعون عدو الله ورباك فى بيته ، وسيصير عدوا لك بعد ذلك كما هو عدو لى.

روى أنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا ووضعته فيه ، وطلت ظاهره بالجص والقار ثم ألقته فى اليم ، وكان يشرع منه (يتفرع) نهر كبير إلى بستان فرعون ، فبينا هو جالس إلى رأس بركة مع زوجه إذا بتابوت يجرى به الماء ، فأمر فرعون غلمانه وجواريه بإخراجه ففعلوا وفتحوا رأسه فإذا صبى من أصبح الناس وجها فأحبه فرعون حبا شديدا لم يتمالك أن يصبر عنه .

(٢) (وألقيت عليك محبة منى) أى ألقيت عليك محبة خالصة منى قد ركزتها فى القلوب وزرعتها فيها ، ومن ثم أحبك فرعون وزوجه حتى قالت « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » .

(٣) (ولتصنع على عينى) أى ولتربى برعايتى ، فأنا مراقبك وحافظك ، كما يراعى الرجل الشىء بعينيه إذا أراد شدة العناية به ، يقول الرجل للصانع : اصنع هذا على عينى انظر إليه حتى يأتى على وفق ما أحب وأبغى .

(٤) (إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن) أى وألقيت عليك محبة منى حين تمشى أختك تتبعك متعرفة حتى وجدتك وصادفتهم يطلبون لك مرضعا تقبل ثديها ، حتى اضطروا إلى تتبع النساء ، فلما رأت ذلك منهم جاءت إليهم متنكرة وقالت هل أدلكم على من يضمه إليه ويحفظه ويربيه ؟ فجاءت بالأم فقبل ثديها ورجع إليها بما لطف الله له من التدبير ، وقرت عينها بسلامته ، وزال عنها الحزن والغم الذى كان قد ألمّ بها .

(٥) (وقتلت نفسا فنجيناك من الغم) أى وقتلت بعد كبرك القبطى الذى وكزته حين استغاث بك الإسرائيلى ، فنجيناك من الغم الذى نزل بك من وجهين :

(ا) عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون كما جاء فى الآية « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » .

(ب) عقابنا إذ قتلته بغير أمر منا فغفرنا لك ذنبك حين قلت : « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » ووفقناك للهجرة إلى مدين .

(٦) (وفتناك فتونا) أى أوقعناك فى محنة بعد محنة وتفضلنا عليك بالخلاص منها ، فمن ذلك :

(ا) إن أمك حملت بك فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الأبناء ، فنجاك الله من الذبح .

(ب) إن أمك ألقتك فى البحر بعد وضعك فى التابوت فالتقطك آل فرعون وعنوا بتربيتك ورعايتك .

(ح) إنك امتنعت عن الرضاع إلا من ثدى أمك وكان ذلك وسيلة إلى إرجاعك إليها .

(د) إنك أخذت بلحية فرعون فغضب من ذلك وأراد قتلك لولا أن قالت له زوجه : إنه صغير لايفرق بين الجمرة والتمرة وأتى لك بهما فأخذت الجمرة .

(ه) قتلك القبطى وخروجك إلى مدين هاربا .

(٧) (فلبثت سنين فى أهل مدين) فقاسيت أثناءها من المحن ما قاسيت ، وتحملت بسبب الفقر والغربة آلاما كثيرة حتى احتجت إلى أن تؤاجر نفسك لشعيب وترعى غنمه .

(ثم جئت على قدر ياموسى) أى ثم جئت على وفق الوقت الذى سبق فى قضائى وقدرى أن أكلمك فيه وأن أجعلك رسولا دون تقدم ولا تأخر عنه ، ولولا توفيق الله لما تهيأ لك شىء من ذلك .

(٨) (واصطنعتك لنفسى) أى اخترتك لإقامة حجتى ، وجعلتك واسطة بينى وبين خلقى فى تبليغ الدين وهدايتهم إلى التوحيد والشرع القويم الذى به صلاح البشر فى دينهم ودنياهم .

وخلاصة ذلك — إنى جعلتك من خواصى واصطفيتك برسالاتى وبكلامى ، فصرت بما آتيتك من كرامة النبوة وجليل النعمة بالمكالمة أشبه بمن يراه الملك أهلا لكرامته فيقربه إليه ويجعله من خواصه وندمائه ويصطنعه بالإحسان إليه فى الحين بعد الحين والفينة بعد الفينة .

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)

شرح المفردات

الآيات : هى المعجزات ، والمراد بها العصا واليد البيضاء ، فإن فرعون حين قال له: فأت بآية ألقى العصا ونزع اليد وقال فذانك برهانان من ربك ، ولا تنيا: أى لا تفترا ولا تقصرا ، فى ذكرى : أى فى تبليغ رسالتى ، فالذكر يطلق على كل العبادات ، وتبليغ الرسالة من أعظمها ، طغى : أى تجاوز الحد ، قولا لينا : أى لا عنف فيه ولا غلظة ، يتذكر : أى يتأمل فيذعن للحق ويؤمن ، يخشى . أى يخاف من بطش الله وعذابه ، يفرط : أى يعجل بالعقوبة، من قولهم فرس فارط إذا كان سباقا للخيل،

يطغى : أى يزداد طغيانا ، أسمع وأرى : أى أسمع وأرى ما يجرى بينكما من قول أو فعل ، فأتياه : أى فقابلاه وجها لوجه ، فأرسل معنا بنى إسرائيل : أى أطلقهم من الأسر، ولا تعذبهم : أى ولا تبقهم على ماهم عليه من العذاب والتسخير فى شاقّ الأعمال ، والسلام على من اتبع الهدى : أى والسلامة من العذاب فى الدارين لمن صدق بآيات الله الهادية إلى الحق ، تولى : أى أعرض .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه المنن الثمانية بإزاء ما طلبه موسى من المطالب الثمان ـ شرع يذكر الأوامر والنواهى التى طلب إليـه أن يقوم بتنفيذها ويؤدى الرسالة على النهج الذى أمره به .

الإيضاح

(اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى) أى اذهب أنت وأخوك إلى فرعون وقومه ، وإنى ممدكما بحججى وبرهاناتى الدالة على صدق نبوتكما ، وأظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح به العلل والمعاذير ، ولا تفترا فى دعوتهم وتبليغ الرسالة إليهم ، فبيِّنا لهم أن الله أرسلكما إليهم مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه .

(اذهبا إلى فرعون إنه طغى) أى اذهبا معا إلى فرعون وناضلاه الحجة بالحجة وقارعاه البرهان بالبرهان ، لأنه طغى وتجبر وتمرد حتى ادعى الربوبيـة فقال أنا ربكم الأعلى .

وتخصيص فرعون بالدعوة آخرا بعد أن كانت الدعوة عامة أوّلا ، من قِبَل أنه إذا صادفت الدعوة من فرعون أذنا صاغية ، واستجاب لدعوتهما وآمن بهما تبعه المصريون قاطبة كما قيل : الناس على دين ملوكهم .

ثم بين لهما سبيل الدعوة فقال :

(فقولا له قولا لينا) أى فكلماه بكلام رقيق لين ليكون أوقع فى نفسه وأنجع فى استجابته للدعوة ، فبرقيق القول تلين قلوب العصاة ، وتنكسر سَوْرة الطغاة ، ومن ثم جاء الأمر به لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

ومن هذا ما حكى الله بعضه عن موسى فى قوله لفرعون : « هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى. وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى» وقوله له:«وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى».

ثم علل الأمر بالإلانة القول بقوله :

(لعله يتذكر أو يخشى) تقدم أن قلنا إن لعل فى مثل هــذا لتوقع حصول ما بعدها : أى أديا الرسالة ، وقوما بتنفيذ ما دعوتكما إليه ، واسعيا إلى إنجازه سعى من يرجو و يطمع أن يثمر عمله ، ولا يخيب سعيه ، فهو يجتهد قدر استطاعته ، و يحتشد بأقصى وسعه آملا أن تكلل أعماله بالنجاح والفوز والفلاح .

وقصارى ذلك — اصدعا بالأمر وأنتما طامعان أن أعمالكما ستثمر ، وأنكما ستهديانه إلى سواء السبيل ؛ وقد جرت العادة أن من رجا شيئا طلبه ، ومن يئس انقطع عمله ، والمقصد من ذلك إلزامه الحجة ، وقطع المعذرة ، و إن لم يفد هدايته .

(قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أوأن يطغى) أى قال موسى وهرون : ربنا إننا نخاف فرعون إن نحن دعوناه إلى ما أمرتنا أن ندعوه إليه ، أن يعجل علينا بالعقوبة ، ولا يصبر إلى إتمام الدعوة و إظهار المعجزة ، أو يزداد طغيانا فيقول فى شأنك ما لا ينبغى ، لعظيم جرأته ، وقساوة قلبه ، وفجوره وشديد عصيانه .

(قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى) أى قال الله لهما : لاتخافا فرعون إننى معكما بالنصرة والتأييد والحفظ من غوائله ، و إننى أسمع وأرى ما يجرى بينكما و بينه من قول أو فعل وأحدث فى كل حال ما يصرف شره عنكما .

والخلاصة — لست بغافل عنكما ، و إنى سأفعل ما يؤدى إلى حفظكم ونصركم عليه ، فلا تأبها به ، ولا تهتما بأمره .

(فأتياه فقولا إنا رسولا ربك) أى فقابلاه وقولا له : إن الله أرسلنا إليك ـ وقد أمرا بتبليغه ذلك من أول وهلة ، ليعرف لهما حقهما ، ويفكر فيما يقابلهما به من الرد على ما ادعيا .

وفى التعبير بقولهما (ربك) إيماء إلى أن ما ادعيته من الربوبية لنفسك ، مما لا ينبغى أن يلتفت إليه ، ولا أن ينظر إليه نظرة الاعتبار والصدق .

(فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم) أى فأطلق بنى إسرائيل من الأسر ، ولا تعذبهم بتسخيرك إياهم فى شاقّ الأعمال كالحفر والبناء ونقل الأحجار ، وقد كان المصريون يستخدمونهم هم ونساءهم فى تلك الأعمال .

وإنما بدأ بهذا الطلب دون دعوة هذا الطاغية وقومه إلى الإيمان ، لأنه أخف وأسهل من ذلك ، لما فيه من تبديل الاعتقاد وهو عسر شاقّ على النفس .

ثم ذكرا ما يوجب امتثال أمرهما ، ويؤكد دعوى رسالتهما بقولهما .

(قد جئناك بآية من ربك) أى قد جئناك بالحجة البالغة والبرهان الساطع على أنه أرسلنا إليك ، وإن لم تصدقنا فيما نقول أريناكها .

(والسلام على من اتبع الهدى) أى والسلامة والأمن من العذاب فى الدنيا والآخرة لمن اتبع رسل ربه ، واهتدى بآياته التى ترشد إلى الحق وتنيل البغية ، وتبعد عن الغى والضلال .

قال الزجاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله وعذابه ، وليس بتحية ، والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب اهـ .

ويمثل هذا كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هِرَقْل ملك الروم قال : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين .

وفى هذا ترغيب فى التصديق على أتم وجوهه ، وتنفير من مخالفته ، وصد عنها على أقصى غاية كما لا يخفى .

ثم ذكرا علة لما سبق لهما من النصح والإرشاد بقولهما .

(إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) أى إنا قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا أن عذابه الذى لانفاد له ولا انقطاع فى الدنيا والآخرة ، على من كذب بما ندعو إليه من توحيد الله وطاعته و إجابة رسله ، وأدبر معرضا عما جئناه به من الحق .

وجاء بمعنى الآية قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى » وقوله : « فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى . لاَيَصْلاَهَا إِلاَّ الْأَشْقَى . الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى » وقوله : « فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى وَلٰكِنْ كَذَّبَ وتوَلَّى » .

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّى وَلاَ يَنْسَى (٥٢) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) .

شرح المفردات

أعطى كل شىء خلقه : أى أعطى كل نوع صورته وشكله الذى يشا كل ما نيط به من الخواص والمنافع ، ثم هدى : أى ثم عرّفه كيف يرتفق بما أعطى له ، البال : الفكر؛ يقال خطر ببالى كذا، ثم أطلق على الحال التى يعتنى بها وهو المراد هنا

فى كتاب : أى دفتر مقيد فيه؛ والمراد بذلك كمال علمه الذى لايضيع منه شىء ، ضل الشىء : أخطأه ولم يهتد إليه ، ونسيه : ذهب عنه ولم يخطر بباله ، والمهد : ما يمهد للصبى ويفرش له : أى جعل الأرض كالمهد ، وسلك : أى سهل ، والسبل : واحدها سبيل : أى طريق ، أزواجا : أى أصنافا ، شتى : واحدها شتيت كمريض ومرضى : أى مختلفة النفع والطعم واللون والشكل ، لآيات : أى لدلالات ، والنهى واحدها نهية ، (بالضم) العقل سمى به لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح .

المعنى الجملى

اعلم أن موسى وهرون عليهما السلام سارعا إلى الامتثال وجاءا فرعون وأبلغاه ما أمرا به ، فسألهما سؤال الإنكار والجحد للصانع الخالق لكل شىء وربه ومليكه ، ودار بينهما من الحوار ما قصه الله علينا .

روى عن ابن عباس أنهما لما جاءا إلى بابه أقاما حينا لايؤذن لهما ، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد ، فدخلا وكان من الحوار ما أخبرنا الله به .

الإيضاح

(قال فمن ربكما يا موسى) أى إذا كنتما رسولى ربكما الذى أرسلكما فأخبرانى من ربكما الذى أرسلكما ؟ .

وإنما خص موسى بالنداء مع توجيه الخطاب إليهما ، لما ظهر له أنه هو الأصل وهرون وزيره .

فأجاب موسى عن سؤاله :

(قالا ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه) أى ربنا الذى أعطى كل شىء ما يليق به مما قدر له من الخواص والمزايا ، فأعطى العين الوضع الذى يطابق ما يراد بها من الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع ، وهكذا الأنف واليد والرجل وجميع أعضاء الجسم .

(ثم هدى) أى ثم أرشده كيف ينتفع بما أعطاه و يرتفق به ، وكيف يصل بذلك إلى بقائه وكماله إما اختيارا كما فى الحيوان و إما طبعا كما فى النبات والجماد .

وخلاصة هذا — ربنا الذى خلق كل شىء على الوجه الذى يليق بما قدر له من المنافع والخواص ، وأرشده كيف ينتفع بما خلق له ، وجعل ذلك دليلا على وجوده ، وعظيم جوده ، وكأنه يقول له : إن ذلك الخالق والهادى هو الله .

و بعد أن أخبر موسى فرعون بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدر ـ شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى الذين لم يعبدوا هذا الإله ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(قال فما بال القرون الأولى ؟) أى فما حال القرون الماضية كعاد وثمود الذين لم يعبدوا الله بل عبدوا غيره ؟ .

فأجاب موسى :

(قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى) أى إن ذلك من علوم الغيب التى لايعلمها إلا الله ، فهو الذى ضبط أعمالهم وأحصاها فى كتاب لايشذ عنه شىء ولا يفوته شىء لا كبير ولا صغير ، ولا ينسى شيئا ، وسيجزيهم بما عملوا جزاء وفاقا .

وقصارى ذلك — إن علمه تعالى محيط بكل شىء ، وأنه لاينسى شيئا تبارك وتعالى ، فعلمه ليس كعلم المخلوقين الذى يعتريه النقص من وجهين : عدم الإحاطة بالأشياء ، ونسيانها بعد علمها .

و إنما سأل فرعونُ هذا السؤال لخوفه أن يزيد موسى فى إظهار تلك الحجة فيستبين للناس صدقه ، فأراد صرفه عن ذلك ، وشغله بالقصص والحكايات التى لاتعلق لها بشئون رسالته ، لكن موسى كان أحرص من أن يهتم بمثل هذا ، ومن ثم أوجز فى رده ، ووكل أمر ذلك إلى ربه .

وإجمال سؤاله — إنه إذا كان الأمر كما ذكرت ففصل لنا حال الماضين من سعادة وشقاء، فرد عليه السلام عليه بأن علم ذلك إلى الله .

ثم عاد إلى تتميم كلامه الأول بإبراز الدلائل على الوحدانية فقال :

(الذى جعل لكم الأرض مهدا) أى ربى الذى لا يضل ولا ينسى هو الذى جعل لكم الأرض كالمهاد تتمهدونها وتستقرون عليها، فتقومون وتنامون وتسافرون على ظهرها .

(وسلك لكم فيها سبلا) أى وجعل لكم فيها طرقا بين الجبال والأودية تمشون فى مناكبها وتسلكونها من قطر إلى قطر لتقضوا مآربكم، وتنتفعوا بمرافقها .

ونحو الآية قوله : « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » .

(وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) أى وأنزل من السماء مطرا فأخرج به مختلف أنواع النبات من زروع وثمار حامضة وحلوة : وهى أيضا مختلفة النفع واللون والرائحة والشكل، بعضها يصلح للإنسان، وبعضها يصلح للحيوان ؛ وفى هذا بيان لنعمه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذى يولد تلك المنافع .

(كلوا وارعوا أنعامكم) أى فأخرجنا أصناف النبات قائلين لكم كلوا وارعوا أنعامكم الخ . فشىء منها أعد لطعامكم وفاكهتكم، وشىء أعد لأنعامكم قوتا لها أخضر ويابسا .

(إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) أى إن فيما وصفت لكم من قدرة ربكم وعظيم سلطانه _ لأدلة على وحدانيته وأنه لا إله غيره إذا كنتم من ذوى العقول الراجحة، والأفكار الثاقبة .

ولما ذكر سبحانه منافع الأرض والسماء بين أنها غير مقصودة لذاتها، بل هى وسائل إلى منافع الآخرة فقال :

(منها خلقناكم) أى من الأرض خلقنا النطفة المتولدة من الأغذية التى تكونت

منها بوسائط ، إذ الغذاء إما حيوانى و إما نباتى ، والحيوانى ينتهى إلى نباتى ، والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء بالتراب .

(وفيها نعيدكم) أى وفى الأرض نعيدكم بعد مماتكم فتصيرون ترابا كما كنتم قبل نشأتكم .

(ومنها نخرجكم تارة أخرى) أى وسنخرجكم منها بعد مماتكم مرة أخرى بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ، ثم نرد الأرواح من مقرها إليها .

وجاء بمعنى الآية قوله : « فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ »وقوله: « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً » وفى الحديث «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حضر جنازة ، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر وقال : منها خلقناكم ، ثم أخذ أخرى وقال وفيها نعيدكم ، ثم أخرى وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرى» ، وأخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة قال: «لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، بسم الله وفى سبيل الله وعلى ملة رسول الله» .

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) .

شرح المفردات

أبى امتنع ، موعد : أى ميعادا معينا ، سوى : أى مستويا لاجبل فيه ولا وهاد بحيث يستر النظارة ، يوم الزينة : يوم عيد كان لهم ، يحشر الناس : أى يجمعون ، والضحى : وقت ارتفاع النهار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه سؤال فرعون عن رب موسى - قفى على ذلك ببيان أنه بصره بالآيات الدالة على توحيد الله كقوله: ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، وقوله: الذى جعل لكم الأرض مهدا ، والدالة على نبوته كإلقاء العصا وصيرورتها ثعبانا ونزع يده من تحت جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء ، فعلم كل هذا وكذب به كفرا وعنادا كما قال : « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » الآية .

الإيضاح

(ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) أى ولقد بصرنا فرعون وعرّفناه آياتنا الدالة على قدرتنا وعلى نبوة موسى فكذب بها وأبى أن يذعن للحق ، وقد يكون المراد بها الآيات التسع المذكورة فى قوله : «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ».

ثم فصل سبحانه صفة تكذيبه وإبائه فقال :

(قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟) أى قال منكرا مستقبحا لما فعل موسى : أجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ماغبت عنا ، لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر ؟ إذ تستولى على عقول الناس فيتبعونك وتكاثرنا بهم .

وخلاصة ما قال — أجئت ياموسى لتوهم الناس بأنك نبى يجب عليهم اتباعك والإيمان بما جئت به إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها ويكون لك الملك فيها، وإنما قال تلك المقالة ليحمل قومه على السخط على موسى والغضب منه ، بإظهار أن مراده ليس مجرد إنجاء بنى إسرائيل من أيديهم ، بل مقصوده إخراج القبط من أوطانهم وحيازة أموالهم وأملاكهم جملة ، وبذا يسد عليه الباب فلا يتوجه أحد إلى اتباع دعوته مبالغة فى المدافعة عن بلادهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولا ينظرونه إلى معجزاته ولا يلتفتون إلى مايدعو إليه من الخير ، ثم ادعى أنه سيعارضه بمثل عمله فقال :

(فلنأتينك بسحر مثله) أى فو الله لنأتينك بسحر مثل سحرك ، فإن عندنا مثل ماعندك ، فلا يغرنّك ما أنت فاعل .

(فاجعل بيننا و بينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت) أى فاجعل بيننا و بينك ميقاتا وموعدا نجتمع نحن وأنتم فيه فنعارض ماجئت به بما عندنا من السحر .

و إنما قال تلك المقالة ليبين أنه قوى القلب جَلْدٌ متمكن من تهيئة وسائل المعارضة ، وترتيب أسباب المغالبة ، طال الأمد أو قصر .

(مكانا سوى) أى و يكون الاجتماع فى مكان مستو من الأرض لاانخفاض فيه ولا ارتفاع ، فلا جبال ولا وهاد تستر بعض الحاضرين عن بعض .

وقصارى ذلك — عين لنا زمان المقابلة ومكانها على ألا يكون فيه مايستر أحدا من الناس عن أحد ليروا ما يصدر منك ومن السحرة .

وغير خاف مافى ذلك من إظهار الجلد وقوة الوثوق بالغلبة .

ثم ذكر رد موسى على ماطلب فقال :

(قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) أى قال موسى : ميعادكم للاجتماع يوم عيد النيروز وكان رأس سنتهم حين يفرغ الناس من أعمالهم و يجتمعون ، ليكون الحفل عاما و يتحدث الناس بذلك الأمر العجيب فى القرى والأمصار ، فتعلو كلمة الله و يظهر دينه و يزهق الباطل و ينتصر الحق على رءوس الأشهاد .

وفى ذلك من وضوح الحجة ما لا خفاء فيه ، ومن وثوقه بفلجه على خصمه ، وعدم مبالاته به .

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ

يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤)

شرح المفردات

فتولى فرعون : أى انصرف عن المجلس ، كيده : أى مايكيد به من السحرة وأدواتهم ، أتى : أى أتى الموعد ومعه ماجمعه من الأعوان والسحرة ، ويلكم : أى هلاك لكم ، والافتراء : الاختلاق والكذب ، فيسحتكم بعذاب : أى يستأصلكم ويهلككم بعذاب شديد ، فتنازعوا : أى تفاوضوا وتشاوروا ، وأسروا النجوى : أى بالغوا فى إخفاء كلامهم ، بطريقتكم المثلى : أى بمذهبكم الذى أنتم عليه وهو أفضل المذاهب وأمثلها ، فأجمعوا كيدكم : أى اجعلوا كيدكم مجمعا عليه ، صفا : أى مصطفين، لأنه أهيب للصدور ، أفلح : أى فاز بالمطلوب ، استعلى : أى غلب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن موسى وفرعون اتفقا على موعد يجتمعان فيه وهو يوم عيد لهم ـ أردف ذلك بذكر مادبره فرعون بعد انصرافه عن المجلس من أمر السحرة وآلات السحر ، وأتى بجميع ذلك ، ثم ذكر أن موسى أوعدهم وحذرهم من عذاب لاقبل لهم به إن أقدموا على ماهم عازمون عليه ، ثم بين أن السحرة حين سمعوا كلام موسى تنازعوا أمرهم وتشاوروا ماذا يفعلون ، و بالغوا فى إخفاء مايريدون ، وقالوا ماموسى وهرون إلا ساحران يريدان أن يغلبا كم ويخرجا كم من دياركم ويرجوان أن تتركا دينكم وهو أمثل الأديان وأفضلها ، لتعتنقوا دينهما ، فحذارِ أن تفعلوا ذلك ولا يتخلفنّ منكم أحد وائتوا صفا واحدا وقد فاز بالمطلوب من غلب .

الإيضاح

(فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى) أى فانصرف عن مجلس الحجاج والمناظرة ، وشرع يُعِدّ مايكيد به من السحرة وآلاتهم وأنصاره وأعوانه ، وكثير ماهم ، ثم أقبل فى الموعد الذى عين ومعه جمعه ، وجلس على سرير ملكه وحوله أكابر دولته ، واصطفت الرعية يَمْنة ويَسْرة ، وأقبل موسى يتوكأ على عصاه ومعه أخوه هرون ، ووقف السحرة صفوفا بين يدى فرعون يحرضهم و يستحثهم و يرغبهم فى جودة العمل و يتمنون عليه وهو يعدهم و يمنيهم ، وقد جاء فى سورة الشعراء : « قَالُوا أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » .

ثم ذكر سبحانه ما كان من موسى حينئذ فقال :

(قال لهم موسى لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب) أى قال موسى للسحرة : لاتختلقوا الكذب على الله ولا تتقولوه عليه ، بأن تدّعوا أن الآيات التى ستظهر على يدىّ سحر كما فعل فرعون ، فيستأصلكم بعذاب من عنده ، ولا يبقى منكم ولا يذر .

(وقد خاب من افترى) على الله الكذب ولم يفلح فى سعيه ولم يصل إلى غرضه ، فابتعدوا عن اختلاق الأكاذيب ، ولا تضلوا سواء السبيل ، حتى لايصيبكم ما أصاب المفترين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

ولما سمع السحرة كلام موسى وهرون هاجهم ذلك .

(فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى) أى فتشاوروا وتفاوضوا ماذا يفعلون ، و بالغوا فى كتمان مايقولون عن موسى وأخيه حتى لايسمعا مايدور من القول ، فيعدّا للأمر عُدته ، و يُهيئا وسائل الدفاع ، ومن الطبعى فى مثل هذه الأحوال أن يُخفى أحد المتخاصمين كل مايدبره من وسائل الفوز والفَلَج عن خصمه الآخر .

ثم بين سبحانه خلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور بقوله :

(قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) أى إن السحرة قالوا فيما بينهم: إن هـذا الرجل وأخاه ساحران خبيران بصناعة السحر، وهما يريدان أن يغلباكم وقومكم ويخرجاكم من دياركم وتخلص لهم الرياسة دونكم.

وخلاصة ما قالوه التنفير منهما لوجوه ثلاثة:

(١) الطعن فى نبوتهما ونسبتهما إلى السحر، وكل ذى طبع سليم ينفر من السحر ويبغض السحرة ويعلم أن السحر لابقاء له، ولا ينبغى اتباع من جاء به ولا اعتناق مذهبه وطريقته.

(٢) إنّ بغيتهما إخراجكم من أرضكم، ومفارقة الوطن شديدة الوطأة على النفوس ومن ثم قال فرعون: «أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى».

(٣) إنهما يريدان أن يستوليا على جميع المناصب والرياسات، ولا يبقيا شيئا من شئون الدولة والتصرف فى أمورها العامة. وإجمال هذا - إنهما إذا تم لهما الأمر أخرجاكم من دياركم، وتمحضت لهما الرياسة دونكم.

ثم بين السحرة مايجب لمقابلة هذا الخطر الداهم والبلاء المقبل فقالوا:

(فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا) أى لاتدعوا شيئا من كيدكم إلا جئتم به كما جاء فى آية أخرى «فَجَمَعَ كَيْدَهُ» ثم ائتوا مصطفين مجتمعين، وألقوا مافى أيديكم دفعة واحدة لتبهروا الأبصار وتعظم هيبتكم لدى النظّارة فى هذا المشهد الحافل.

(وقد أفلح اليوم من استعلى) أى وقد فاز بالمطلوب من غلب منا، أما نحن فقد وعدنا بالعطاء الجزيل والقرب من الملك: «قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» وأما هو فسينال الرياسة، وما مقصدهم من ذلك إلا تشديد العزائم وحفز الهمم، ليبذلوا أقصى الجهد للفوز والفلج بالمطلوب.

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) .

شرح المفردات

إيجاس الخوف : الإحساس بشيء منه ، مافي يمينك : هي العصا ؛ وأبهمها تفخيما لشأنها ، وتلقف : تبتلع بقوة وسرعة ، صنعوا : أي زوّروا وافتعلوا ؛ كيد ساحر : أي كيد سحريّ لاحقيقة له ولا ثبات ، حيث أتى : أي أينما كان ، كبيركم : أي

زعيمكم ومعلمكم. قال الكسائى: الصبى بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال جئت من عند كبيرى ، من خلاف : أى من حال مختلفة فتقطع الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى، أشد عذابا : أى أدوم ، نؤثرك : أى نفضلك ونختارك ، فطرنا : أى ابتدعنا وأوجدنا من العدم ، فاقض : أى فاحكم ، جنات عدن : أى جنات أعدت للإقامة ، من تحتها : أى من تحت غرفها ، تزكى : أى تطهر من أدناس الكفر وأرجاس المعاصى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الموعد وهو يوم الزينة ، وذكر أنهم قالوا ائتوا صفا ـ ذكر هنا أنهم بعد أن أتوا خيروه بين أن يبدأ بإلقاء ما معه ، وأن يبدءوا هم ، فاختار الثانية ، وحين بدءوا فألقوا حبالهم وعصيهم خاف موسى عاقبة أمره ، فأوحى إليه ربه « لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ » فسيكون لك الفلج والظفر عليهم ، وقد تحقق ما وعد الله به ، وكتب له النصر وآمن به السحرة ، فلجأ فرعون إلى العناد والاستكبار ، وتوعد السحرة بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسيصلبهم فى جذوع النخل ، فقابلوا تهديده بالازدراء والسخرية ، وقالوا إنما أنت مسلط علينا فى هذه الحياة الدنيا ، وعذابك لا يعدوها ، وما عند الله من العذاب لا يضارعه عذاب ، وما عنده من الثواب لا يقدر قدره ، ففى جناته التى تجرى من تحتها الأنهار ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الإيضاح

(قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى) أى فأجمع السحرة كيدهم ثم أتوا صفا فقالوا لموسى : اختر لك أحد الأمرين ، إما أن تلقى ما معك ، وإما أن نلقى ما معنا .

وهذا التخيير منهم حسن أدب معه وتواضع منهم وتنبيه إلى إعطائه النَّصَفة

من أنفسهم ، وكأن الله ألهمهم ذلك وعلّم موسى أن من الخير له اختيار إلقائهم أولا ، لأنهم إذا أبرزوا ما معهم من مكايد السحر واستنفدوا أقصى مجهودهم، أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فمحقته ، وكانت آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين ، ومن ثم قال :

(قال بل ألقوا) أى بل ألقوا أنتم أوّلا لنرى ما تصنعون من السحر ، و يظهر للناس حقيقة أمركم ، وحين ألقوا : « قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ » .

(فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) أى فألقوا ما معهم من الحبال والعصىّ فخيل إلى موسى أنها تمشى ، وجاء فى آية أخرى : « فَسَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » .

قيل إنهم حشوها بالزئبق الذى من طبعه أن يتأثر سريعا بحرارة الشمس ، فما أسرع ما تحركت تلك الحبال والعصى حين سقطت عليها أشعة الشمس ، فامتلأ الوادى بحيات يركب بعضها بعضا .

وخلاصة ذلك — إنهم حشوها بزئبق أو بمادة أخرى إذا وقعت عليها الشمس اضطربت وتحركت واتصل بعضها ببعض ، فمن رآها ظن أنها تمشى وتسعى .

(فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أى فأحس موسى بشئ من الخوف حين فوجئ بذلك على مقتضى الطبيعة البشرية حين ترى الأمر المهول المخيف .

ثم أبان سبحانه أنه ربط على قلبه فقال :

(قلنا لاتخف) أى قلنا له : هدئ روعك واطمئن بالا .

ثم علل ذلك بقوله :

(إنك أنت الأعلى) أى إنك ستنتصر عليهم وستكون لك الغلبة ، فالعاقبة للمتقين .

(وألق مافى يمينك تلقف ما صنعوا) أى وألق عصاك تبتلع حبالهم وعصيهم التى سحروا بها أعين الناس حتى خيل إليك أنها تسعى .

وإنما أوثر إبهام العصا تهويلا لأمرها ، وتفخيما لشأنها ، وإيذانا بأنها ليست من جنس العصىّ المعهودة ، لما سينشأ عنها من عجيب الأثر وغريب الصنع .

(إن ما صنعوا كيد ساحر) أى إن الذى فعلوه بعد تدرّب كثير وممارسة طويلة كيد سحرى لا حقيقة له ولا بقاء .

وخلاصة ذلك — إن الذى معك يا موسى معجزة إلهية ، والذى معهم تمويه وتلفيق ظاهر عليه الزور والبهتان ، فكيف يتعارضان ؟ .

(ولا يفلح الساحر حيث أتى) أى ولا ينال الساحر مقصوده بالسحر ، خيرا كان أو شرا حيثما كان .

ثم ذكر سبحانه ما يدل على أنه امتثل أمر ربه وألقى العصا وكان ما وعد به من تلقفها لما صنعوا فقال :

(فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى) أى فألقى ما فى يمينه وصار حية تلقف ما صنعوا وظهر للسحرة جلية الأمر وأن ما عمله ليس بالسحر ، فهو ليس من فنون السحر التى حذقوها ، ولا من أنواع الحيل التى عرفوها ، وإنه الحق الذى لا مرية فيه ، ولا يقدر على مثله إلا من يقول للشىء كن فيكون ، حينئذ وقعوا سجدا لله وقالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون .

روى أن رئيسهم قال : كنا نغلب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا ، فلو كان هذا سحرا فأين الذى ألقيناه ، فاستدلوا بتغيير أحوال الأجسام على وجود الصانع القادر ، وبظهورها على يد موسى على كونه رسولا صادقا من عند الله ، لا جرم تابوا وآمنوا وأتوا وهم خاضعون ساجدون .

قال صاحب الكشاف — سبحان الله ، ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود .

روى عن ابن عباس أنه قال : كانوا أول النهار سحرة ، وفى آخره شهداء بررة ؛ وروى عنه عكرِمة أنه قال : كان السحرة سبعين رجلا أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء .

وإنما قالوا برب هرون وموسى ولم يقتصروا على قولهم (رب العالمين) لأن فرعون كان قد ادعى الربوبية فقال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » والألوهية إذ قال : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي » فلو قالوا ذلك فحسب لقال فرعون : آمنوا بى ، وإنما لم يقتصروا على ذكر موسى بل ذكروا هرون وقدموه عليه خوفا من هذه الشبهة أيضا ، إذ أن فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى ، لأنه رباه فى صغره كما قال: « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا » .

ولما خاف فرعون أن يصير ذلك سببا لاقتداء الناس بهما فى الإيمان بالله ورسوله ألقى شبهة فى النبى ونبوته .

(قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) أى إنكم قد فعلتم جريرتين وارتكبتم جرمين :

(١) إنكم آمنتم له قبل البحث والتفكير ، فإيمانكم لم يكن عن بصيرة وأناة فلا يعتدّ به .

(٢) إنكم تلاميذه فى السحر ، فتواطأتم على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجا لدعوته وتفخيما لأمره .

وبعد أن أورد هذه الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيرا لهم من الإيمان ، وتحذيرا لغيرهم عن الاقتداء بهما فقال :

(فلأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف) أى أقسم بالله لأقطعنها مختلفات ، بأن تقطع الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى ، وإنما اختار ذلك دون القطع من وفاق ، لأن فيه إهلاكا وتفويتا لمنفعة .

(ولأصلبنكم فى جذوع النخل) زيادة فى إيلامكم وتشهيرا بكم .

وخلاصة ذلك — لأجعلنكم مثلة ، ولأزيلن مالكم من منافع ولأشهرنّ بكم ، قال ابن عباس فكان أول من عذب بهذا العذاب .

(ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) أى ولتعلمُن أنا أو موسى أشد عذابا وأبقى .

وفى ذلك إيماء إلى اقتداره وقهره وبيان ما ألفه وضَرِى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب ، كما فيه تحقير لشأن موسى واستضعاف له مع السخرية منه .

ثم لما صال عليهم بذلك وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم فى الله .

(قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات) أى لن نختارك بالإيمان والانقياد على ما جاءنا من الله على يد موسى من المعجزات التى اشتملت عليها العصا .

وفى هذا إشارة إلى أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان بموسى ، وإلا فعل بهم ما أوعدهم به .

(والذى فطرنا) أى لن نختارك على ما جاءنا من الهدى ، وعلى فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم ، إذ هو المستحق للعبادة والخضوع ، لا أنت .

ولما علموا أنهم متى أصروا على الإيمان ، فعل فرعون ما أوعدهم به قالوا :

(فاقض ما أنت قاض) أى فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك ، فوعيدك لا يزحزحنا عن إيماننا واطمئناننا بما صرنا إليه .

ثم بينوا ما لأجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا :

(إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) أى إنما لك تسلط علينا فى هذه الدار دار الزوال ونحن نرغب فى دار البقاء .

وقصارى ردهم — إنك إنما تصنع ما تهوى فى هذه الدنيا فحسب ، وإنا لا نأبه بنعيمها ولا نرهب عذابها .

(إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) أى إنا آمنا بربنا المحسن إلينا طوال أعمارنا ، ليستر ما اجترحنا من الذنوب والآثام ، ولا سيما ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آيات الله ومعجزاته .

روى الحسن أن السحرة الذين حشدوا من المدائن ليعارضوا موسى ، أحضروا مُكْرَهين ، وأكرهوا على إظهار السحر ، وروى أن رؤساء السحرة كانوا اثنين

وسبعين ، اثنان منهم من القبط ، والباقون من بنى إسرائيل أكرههم فرعون على تعلم السحر .

(والله خير وأبقى) أى والله خير منك جزاء وأدوم ثوابا مما كنت دعوتنا إليه ومنيتنا به .

ولم يرد دليل على أنه نفذ ما صمم عليه فى عقابهم ، ولكن الراجح أنه نفذ ذلك كما يرشد إلى ذلك قول ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء بررة .

ثم ختم السحرة كلامهم بشرح أحوال المجرمين وأحوال المؤمنين يوم العرض والحساب عظة لفرعون وتحذيرا له من نقمة الله وعذابه السرمدى وترغيبا له فى ثوابه الأبدى .

(إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيا) أى من يلق الله وهو مجرم بكفره ومعاصيه فإن له جهنم لايموت فيها فينتهى عذابه ، ولا يحيا حياة طيبة ينتفع فيها بالنعيم المقيم ، قال المبرد : لايموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة ، فهو يألم كما يألم الحى ويبلغ به حالة الموت فى المكروه ، إلا أنه لايبطل فيها عن إحساس الألم ؛ والعرب تقول : فلان لا حى ولا ميت . إذا كان غير منتفع بحياته . كما قالت زوج صخر حين سئلت عنه وهو مريض : لا هو حىّ فيرجى ، ولا ميْت فينعى .

ونحو الآية قوله : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ » وقوله : « وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » وقوله : « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » .

(ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) أى ومن لقى ربه مؤمنا به وبما جاء به رسوله من عنده من المعجزات التى من جملتها ما رأيناه وشاهدناه ثم عمل صالح الأعمال فهؤلاء لهم بسبب إيمانهم وجليل أعمالهم المنازل الرفيعة والدرجات العالية .

وفى الصحيحين : «إن أهل عليين ليَرَوْنَ مَنْ فوقهم كما ترون الكوكب العابر فى أفق السماء لتفاضل ما بينهم ، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء ، قال بلى ، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» . وفى السنن: إن أبا بكر وعمر لمنهم ونعمّا .

ثم فسر تلك الدرجات العلى بقوله :

(جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى تلك الدرجات العلى هى جنات إقامة تجرى من تحت غرفها الأنهار ماكثين فيها أبدا .

ثم بين سبب فوزهم بهذا النعيم فقال :

(وذلك جزاء من تزكى) أى وذلك الفوز الذى أوتوه جزاء لهم على طهارة أنفسهم من دنس الكفر ومن تدسية أنفسهم بأوضار الذنوب والآثام ، وعلى عبادتهم لله وحده لاشريك له واتباعهم للنبيين والمرسلين فيما جاءوا به من عند ربهم .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) .

شرح المفردات

السرى والإسراء : السير ليلا ، اضرب لهم : أى اجعل لهم ، يبسا : أى طريقا يابسا لا ماء فيه ، والدرك (بالفتح والسكون) : الإدراك واللحوق ، تخشى : أى تخاف

غرقا ، وأتبع وتبع: بمعنى ، فغشيهم من اليم ماغشيهم : أى فغمرهم وعلاهم من البحر ما علاهم من الأمر الهائل الذى لايعلم كنهه إلا الله ، وأضل فرعون قومه : أى سلك بهم مسلكا أدّاهم إلى الخسران فى دينهم ودنياهم إذ أغرقوا فأدخلوا نارا ، وما هدى : أى وما أرشدهم إلى طريق يصل بهم إلى طريق السعادة ، الأيمن : أى الذى عن يمين من ينطلق من مصر إلى الشام ، المنّ : نوع من الحلوى يسمى الترنجبين ، والسلوى : طائر شبيه بالسُّمَانَى ، ولا تطغوا فيه : أى فلا تأخذوه من غير حاجة إليه فيحل عليكم غضبى : أى ينزل بكم ، هوى : سقط وهلك ، غفار : كثير المغفرة والستر للذنوب ، اهتدى : أى لزم الهداية واستقام .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص موسى مع سحرة فرعون وأنه تم له الغلب عليهم وأن السحرة آمنوا به وأن فرعون أبى أن يذعن للحق وتمادى هو وقومه فى العناد والإعراض عن سبيل الرشاد ـ أردف ذلك بذكر ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الغرق فى البحر حين تبعوا موسى للحاق به لما خرج من مصر ذاهبا إلى الطور، وطوى فى البين ذكر ما جرى على فرعون وقومه بعد أن غُلبت السحرة ـ من الآيات المفصلة التى حدثت على يد موسى فى مدى عشرين سنة على حسب ما فصل فى سورة الأعراف ، وكان فرعون كلما جاءته آية عذاب وعد أن يرسل بنى إسرائيل حين ينكشف عنه العذاب ، فإذا هو انكشف نكص على عقبيه ونكث فى عهده ، حتى أمر الله موسى بالهجرة والخروج ليلا من مصر ، ثم عدد بعدئذ نعمه الدينية والدنيوية على بنى إسرائيل ، فذكر أنه أنجاهم من عدوهم وقد كان يُنزل بهم ضروبا من الظلم : من قتل وإذلال وتعب فى الأعمال ، وأنه ذكر أنه أنزل عليهم كتابا فيه بيان دينهم وتفصيل شريعتهم ، وأنه أنزل لهم المن والسلوى ، وأنه أمرهم بأكل

الطيبات من الرزق وزجرهم عن العصيان ، وأن من عصى ثم تاب كانت توبته مقبولة عند ربه .

الإيضاح

(ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولا تخشى) أى ولقد أوحينا إلى نبينا موسى حين تابعنا له الحجج على فرعون فأبى أن يستجيب لأمر ربه وتمادى فى طغيانه : أن أسر بعبادى الذين أرسلتك لإنقاذهم من هذا الطاغية ، واخرج بهم من مصر ، فاتخذ لهم طريقا يابسا فى البحر ولا تخف من فرعون وقومه أن يدركوك ولا تخش أن يغرقك البحر .

وفى التعبير عن بنى إسرائيل (بعبادى) إظهار للعناية بأمرهم والرحمة لهم ، وتنبيه إلى قبح صنيع فرعون بهم ، إذ هو قد استعبدهم وفعل بهم من ضروب الظلم مافعل ولم يراقب فيهم مولاهم الحق .

(فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ماغشيهم) أى ولما سرى بهم موسى أتبعهم فرعون بجنوده حين قطعوا البحر فغشيهم من اليم مالاسبيل إلى إدراك كنهه، فغرقوا جميعا .

(وأضل فرعون قومه وما هدى) أى وقد سلك بقومه سبيل الضلال فى دينهم ودنياهم ، وما هداهم إلى سبيل الرشاد ، وفى هـذا تهكم به إذ قال « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ » .

ثم شرع سبحانه يعدد نعمه على بنى إسرائيل فقال :

(١) (يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون وقومه حين كانوا يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وأقر عينكم منهم إذ أغرقهم وأنتم تنظرون كما قال : « وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » .

(٢) (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) فكلمناك تكليما وأعطيناك التوراة وفيها تفصيل شريعتك .

(٣) (ونزلنا عليكم المن والسلوى) فكان ينزل عليكم المن وأنتم فى التيه مثل الثلج بياضا مع حلاوة شديدة من الفجر إلى طلوع الشمس ، وتبعث إليكم ريح الجنوب بطير السمانى فيأخذ كل منكم مايكفيه .

(كلوا من طيبات مارزقناكم) أى وقلنا لهم كلوا من تلك اللذائذ التى أنعمنا بها عليكم .

(ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى) أى ولا تطغوا فى رزقى بالإخلال بشكره وتعدى حدودى فيه بالسرف والبطر والاستعانة به على المعاصى ومنع الحقوق الواجبة فيه ، فينزل عليكم غضبى ، وتجب عليكم عقوبتى .

(ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى ومن ينزل به غضبى فقد شقى وهلك .

(وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) أى وإنى لذو مغفرة عظيمة لمن يتوب من شركه ، ويقلع عن ذنبه ، ويخلص لى فى العمل ويؤدى فرائضى ويجتنب معاصىّ ويستقيم حتى الموت .

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا

فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا (٨٩) .

شرح المفردات

يقال جاء على أثره (بفتحتين وبكسر فسكون) : إذا جاء لاحقا به بلا تأخير ، فتنا قومك : أي اختبرناهم ، وأضلهم : أي أوقعهم فى الضلال والخسران ، والسامرى: من شعب إسرائيل من بطن يقال له السامرة واسمه موسى ، والأسِف : الحزين ، والوعد الحسن : إعطاء التوراة التى فيها هدى ونور، والعهد : زمان الإنجاز ، موعدى: أى وعدكم إياى بالثبات على الإيمان وقيامكم بأداء ما أمرتم به من التكاليف ، بملكنا: أى بقدرتنا واختيارنا ، والأوزار : الأثقال والأحمال ؛ والمراد بالقوم هنا القبط ، فقذفناها : أى طرحناها فى النار ، جسدا : أى جثة لاروح فيها ، والخوار : صوت العجل ، فنسى : أى فغفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور ، أن لايرجع إليهم قولا : أى لايردّ عليهم جوابا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا : أى لا يقدر أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أوحى إلى موسى أن يخرج هو وقومه من مصر ليلا ويخترق بهم البحر ولا يخشى غرقا ولا دركا من فرعون وجنده ، وأن البحر أغرق فرعون وقومه جميعا حينما أرادوا اللحاق ببنى إسرائيل ، ثم عدد نعمه عليهم من إنجائهم من عدوهم وإنزال المن والسلوى عليهم ، ثم أمرهم بأكل الطيبات من الرزق ونهاهم عن الطغيان ، ثم ذكر أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ـ أعقب هـذا بما جرى بينه سبحانه وبين موسى من الكلام حين موافاته الميقات على حسب

المواعدة التى ذكرت آنفا ، وبما حدث من فتنة السامرى لبنى إسرائيل ورجوع موسى إليهم غضبان أسفا ، ثم معاقبته لهم على ماصنعوا ، ثم ذكر الحيلة التى فعلها السامرى حين أخرج لهم من حليهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ، فرد الله عليهم ووبخهم بأن هذا العجل لايجيبهم إذا سألوا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فى دينهم ولا دنياهم .

الإيضاح

(وما أعجلك عن قومك ياموسى ؟) المراد بالقوم النقباء السبعون ، وإعجاله عنهم تقدمه عليهم ، أى أىّ شىء عجل بك عن قومك وجعلك تتقدم عليهم ؟

والمراد الإنكار عليه فى تقدمه عليهم، لأن ذلك يقتضى إغفال أمرهم وعدم العناية بهم مع أنه مأمور باستصحابهم وإحضارهم معه ، وإنكار للعجلة فى ذاتها أيضا ولا سيما من أولى العزم الذين يجدر بهم مزيد الحزم .

(قال هم أولاء على أثرى) أى قال موسى مجيبا ربه : هم أولاء بالقرب منى آتون على أثرى ، وما تقدمتهم إلا بخطا يسيرة لايعتدّ بها ، وليس بينى وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها بعض الرفقة على بعض .

(وعجلت إليك رب لترضى) أى وعجلت إليك رب لتزداد عنى رضا ، بالمسارعة إلى امتثال أمرك ، والوفاء بعهدك .

وخلاصة معذرته — إنى اجتهدت أن أتقدم عن قومى بخطا يسيرة ، ظنا منى أن مثل ذلك لاينكر ، فأخطأت فى اجتهادى ، وقد حملنى على ذلك طلب الزيادة فى مرضاتك ، وكأنه عليه السلام يقول : إنما أغفلت هذا الأمر مبادرة إلى رضاك ومسارعة إلى الميعاد ، والموعود بما يسرّ يود لو ركب أجنحة الطير ليحظى بما يبتغى ويريد .

(قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك) أى قال سبحانه لموسى : فإنا قد اختبرنا

قومك الذين خلفتهم مع هٰرون من بعد فراقك . قال ابن الأنبارى صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هرون اه . وهذه الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوما .

(وأضلهم السامرى) أى دعاهم إلى الضلال باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته وكان من قوم يعبدون البقر فدخل فى دين بنى إسرائيل فى الظاهر وفى قلبه حنين لعبادة البقر فأطاعه بعض وامتنع آخرون .

(فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) أى فانصرف موسى إلى قومه بنى إسرائيل بعد انقضاء الليالى الأربعين ـ مغتاظا من قومه ، حزينا لما أحدثوا من بعده من الكفر بالله . روى أنه لما رجع موسى سمع الصياح والضجيج وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة .

قال القرطبى : سئل الإمام أبو بكر الطرشوشى عن جماعة يجتمعون ويكثرون من ذكر الله وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم ثم إنهم يضربون بالقضيب على شىء من الطبل ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ، ويحضرون شيئا يأكلونه ، فهل الحضور معهم جائز أم لا ؟ فأجاب : يرحمك الله مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل ؛ وأما الطبل فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله ، وإنما كان مجلس النبى مع أصحابه، كأنما على رءوسهم الطير من الوقار، فينبغى للسلطان أن يمنعهم من الحضور فى المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم، وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين اه.

(قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) لاسبيل لكم إلى إنكاره ، فقد وعدكم بإنزال الكتاب الهادى إلى الشرائع والأحكام ، ووعدكم الثواب العظيم فى الآخرة

بقوله : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » ووعدكم أنكم ستملكون أرض الجبارين وديارهم .

(أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى؟) أى أفطال عليكم الزمان فنسيتم وعدكم إياى بالثبات على دينى إلى أن أرجع من الميقات ؟ أم تعمدتم فعل مايكون سببا لحلول غضب ربكم عليكم بعبادتكم للعجل وكفركم به ؟

وخلاصة ذلك — أفطال عليكم العهد فنسيتم أم تعمدتم المعصية فأخلفتم ؟

(قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) أى قالوا ما أخلفنا عهدك بالثبات على دينك إلا لأنا لم نملك أمرنا ، فلو خلينا وأنفسنا ولم يسوّل لنا السامرى ماسوّله ، لما أخلفنا .

وفى هذا إيماء إلى أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ وأنهم لم يطيقوا حمل أنفسهم على الصواب ومن ثم وقعوا فيما وقعوا فيه من الفتنة .

وقصارى كلامهم : إن السامرى سول لنا ماسول وغلب على عقولنا فخالفنا عهدك .

(ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها) أى ولكن غلبنا موسى السامرى ، إذ حملنا أحمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر بعلة أن لنا عيدا غدا ، وقال : إنما حُبس موسى عنكم بشؤم حرمتها ثم أمرنا أن نحفر حفرة ونملأها نارا وأن نقذف الحلى فيها فقذفناه .

وسميت أوزارا : أى آثاما لأنه لايحل لهم أخذها ، ولا تحل لهم الغنائم فى شريعتهم .

(فكذلك ألقى السامرى) أى فكما قذفنا نحن تلك الأثقال ، ألقى السامرى ما كان معه منها .

(فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) أى فأخرج لهم من تلك الأثقال التى

قذفوها جسد عجل من ذهب لاروح فيه ، وله خوار كخواره ، إذ هو قد صنعه بدقة وجعل فيه أنابيب يظهر فيها الصوت بمرور الريح بعد أن جعله فى اتجاهه .

(فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى) أى فقال السامرى ومن افتتن به أول مارآه. هذا هو إلهكم وإله موسى فاعبدوه ، وقد غفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور .

فرد عليهم سبحانه مقبحا أفعالهم مسفها أحلامهم فقال :

(أفلا يرون أن لايرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا؟) أى أفلا يعتبرون و يتفكرون فى أن هذا العجل لايرجع إليهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا ، وأنه لايقدر أن يدفع عنهم ضرا ولا يجلب لهم نفعا .

وقصارى مايقول — إنه عاجز عن الخطاب وعن النفع والضر فكيف يتخذونه إلها .

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ

نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا (٩٨) .

شرح المفردات

فتنتم به : أى وقعتم فى الفتنة والضلال ، فاتبعونى : أى فى الثبات على الحق ، لن نبرح : أى لانزال ، عاكفين : أى مقيمين ، بلحيتى ولا برأسى : أى بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى ، خشيت : أى خفت ، ولم ترقب قولى : أى ولم تراع ، فما خطبك : أى ماشأنك وما الأمر العظيم الذى صدر منك ، بصرت بما لم يبصروا به (بضم الصاد فيهما): أى علمت مالم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له ؛ يقال بصر بالشيء إذا علمه وأبصره إذا نظر إليه، والرسول موسى عليه السلام ، وأثره سنته ، فنبذتها: أى طرحتها ، وسولت لى نفسى : أى زينت وحسنت ، لامساس : أى لامخالطة فلا يخالطه أحد ولا يخالط أحدا. فعاش وحيدا طريدا ، لن تخلفه : أى سيأتيك به الله حتما . ظلت (أصله ظللت دخله حذف) : أى أقمت ، لنحرقنه : أى لنبردنّه بالمبرد ، لننسفنه : أى لنذرينه ، فى اليمّ : أى فى البحر ، وسع كل شىء علما : أى وسع علمه كل شىء وأحاط به .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن عبادتهم للعجل مخالفة لقضية العقل ، لأنه لايستجيب لهم دعاء ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ــ أكد هذا وزاد عليهم فى التشنيع ببيان أنهم قد عصوا الرسول الذى نبههم إلى خطإ مافعلوا ، ثم حكى معاتبة موسى لهرون على سكوته على بنى إسرائيل وهو يراهم يعبدون العجل ، ثم ذكر أنه اعتذر له ولكنه لم يقبل معذرته ، ثم قص علينا ما قاله السامرى وما أنّبه به موسى وما عاقبه الله به فى الدنيا والآخرة ، وما صنعه موسى بالعجل من نسفه وإلقائه فى البحر ، ثم بين لهم

أن الإله الحق هو الذى يحيط علمه بما فى السموات والأرض لاذاك الجماد الذى لايضر ولا ينفع ، ولا يرد جوابا ولا يسمع خطابا .

الإيضاح

(ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم إنما فتنتم به) أى ولقد قال هرون لعبدة العجل من بنى إسرائيل ناصحا لهم من قبل رجوع موسى إليهم : ياقوم إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل الذى أحدث فيه الخوار ، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض الشاك فى دينه .

(وإن ربكم الرحمن) أى إن خالقكم وخالق كل شىء هو الذى عمت رحمته جميع مخلوقاته . فآتاهم مافيه كمالهم الجسمى والروحى ومابه سعادتهم فى معاشهم ومعادهم.

وفى ذكر الربوبية والرحمة استمالة لهم إلى الحق إثر زجرهم عن الباطل ، وتذكير لهم بإنجائهم من فرعون وعذابه ، وتنبيه لهم إلى أنهم متى تابوا قبلت توبتهم .

(فاتبعونى وأطيعوا أمرى) أى فاتبعونى فيما آمركم به من عبادتى وترك عبادة العجل ، وأطيعونى فى اتباع ما يبلغكم رسولى .

ثم بين أنهم لم يسمعوا نصحه ولم يطيعوا أمره .

(قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) أى قال عبدة العجل من قوم موسى : لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع موسى إلينا ، لنرى ماذا يقول وماذا يرى فى ذلك ؟ .

وما مقصدهم من ذلك إلا التعلل والتسويف وعدم إجابة طلب هرون .

ثم ذكر مقال موسى لهرون بعد أن فرغ من خطاب قومه و بيان خطأ فعلهم .

(قال ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن) أى قال موسى لهرون : أىّ شىء منعك حين رأيت ضلالهم أن تلحقنى إلى جبل الطور بمن آمن معك من بنى إسرائيل ؟ .

وقد كان موسى يرى أن مفارقة هرون لهم ، وخروجه من بينهم بعد تلك النصائح القولية يكون أزجر لهم من الاقتصار على النصائح وحدها ، لما فى ذلك من الدلالة على شديد الغضب والإنكار عليهم ، فإن مفارقة الرئيس المحبوب لديهم من أجل أمر مبغوض لديهم مما تشق على النفوس ، وتقتضى ترك ذلك الأمر الذى يكرهه .

(أفعصيت أمرى) فيما قدمت إليك من قولى : « اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » .

فلما أقام بينهم ولم يبالغ فى الإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره .

فترفق هرون فى خطاب موسى استعطافا له وترقيقا لقلبه إذ أضافه إلى الأمّ مع كونه أخاه لأبيه وأمه .

(قال يا ابن أمّ لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى) أى فامتلأ موسى غضبا مما رأى وألقى مافى يده من الألواح الإلهية وأخذ برأس أخيه يجره إليه فقال : يابن أمى لاتأخذ بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى . وقد روى أن موسى أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله ، وكان عليه السلام حديدا غضوبا لله تعالى ، وقد شاهد ماشاهد وغلب على ظنه تقصير هرون عليه السلام ففعل ما فعل .

قال صاحب الكشاف : كان موسى عليه السلام رجلا حديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شىء ، شديد الغضب لله ولدينه ، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام أن ألقى ألواح التوراة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة غضبا لله واستنكافا وحمية ، وعنّف بأخيه وخليفته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف ، قابضا على شعر رأسه (وكان أفرع) وعلى شعر وجهه يجره إليه .

ثم بين علة هذا النهى بأنه غير عاص أمره ولا مقصر فى المصلحة ، ولكن :

(إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى) أى إنى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا ، فتريثت حتى تكون أنت المتدارك ذلك بنفسك ،

المتلافيه برأيك ، وخشيت عتابك على اطراح ما وصيتنى به ، ولم يكن بد من مراقبة ذلك والعمل على موجبه .

وخلاصة ذلك — إنى رأيت من صواب الرأى أن أحفظ العامة وأداريهم على وجه لايختل به نظامهم ، ولا يكون سببا للومك حتى ترجع فتتدارك الأمر على حسب ما ترى ، ولا سيما أن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى .

و بعد أن انتهى من سماع اعتذار قومه و إسنادهم الفساد إلى السامرىّ ومن سماع اعتذار هرون ـ وجه الكلام إلى السامرى .

(قال ما خطبك يا سامرى) أى قال موسى للسامرى : ما شأنك وما الذى دهاك حتى فعلت ذلك الأمر الجلل ؟ وقد خاطبه بهذا ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ، و يفعل به و بما أخرجه ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الأمم .

(قال بصرت بما لم يبصروا به) أى قال السامرى : إنى عرفت مالم يعرفه القوم ولم تعرفه أنت ، وعرفت أن ما أنتم عليه ليس بالحق .

(فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها) أى وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أى شيئا من سنتك ودينك فطرحته ، كما يقال فلان يقفو أثر فلان و يقبض أثره إذا كان يمتثل رسمه ، و يتبع طريقته ، وأجرى الكلام على طريق الغيبة وهو يخاطبه على نهج قول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير فى كذا و بماذا يأمر الأمير؟ قاله أبومسلم الأصفهانى، وأيده الرازى وقال إنه أقرب إلى التحقيق .

وخلاصة هذا — إن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والتعنيف والسؤال عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم ـ رد عليه بأنه كان استن بسنته ، واقتفى أثره وتبع دينه ، ثم استبان له أن ذلك هو الضلال بعينه ، وأنه ليس من الحق فى شىء ، فطرحه وراءه ظهريا وسار على النهج الذى رأى .

وفى التعبير بكلمة (الرسول) على هذا نوع من التهكم والسخرية ، لأنه جاحد

مكذب له . فهو على نحو ما حكى الله عن بعض الجاحدين بقوله : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » وهم لا يؤمنون بالإنزال عليه .

(وكذلك سولت لى نفسى) أى ومثل ما زينت لى نفسى أولا اتباع سنتك واقتفاء أثرك زينت لى أيضا ترك ذلك بمحض الهوى لا لشىء آخر من برهان عقلى أو نقلى أو إلهام إلهى .

والخلاصة — لم يدعنى إلى ما فعلت إلا هوى النفس فحسب .

ولما سمع موسى من السامرى ما سمع ذكر له ما سينزل به فى الدنيا والآخرة من العقوبات ، وبين حال إلهه ، أما حاله فى الدنيا فقد ذكره بقوله :

(قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس) أى قال له : اذهب فأنت طريد من بين الناس ، فلا يخالطك أحد ولا تخالط أحدا ، حتى لو سئلت عن حالك لم تقل إلا أنه لامساس : أى لا يماسنى أحد ولا أماس أحدا ، قال مقاتل : إن موسى عليه السلام أمره هو وأهله بالخروج من محلة بنى إسرائيل ، فخرج طريدا فى البرارى. روى أنه لما قال له موسى ذلك هرب فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش ، ولا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لامساس لبعده عن الناس وبعد الناس عنه .

وقصارى ذلك — إنه خاف وهرب وجعل يهيم فى البرّية حتى صار لبعده عن الناس كأنه قائل ذلك .

وأما حاله فى الآخرة فقد ذكره بقوله :

(وإن لك موعدا لن تخلفه) أى وإن لك موعدا فى الآخرة لن يخلفكه الله ، بل سينجزه لك البتة بعد أن يعاقبك فى الدنيا ، وهو آت لا محيص منه .

وأما حال إلهه فقد بينه بقوله :

(وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليمّ نسفا)

أى وانظر إلى هذا المعبود بزعمك الذى عكفت على عبادته ، لنبردنّه بالمبرد ثم لنذرينه فى البحر إذا صار سُحالة كذرات الهباء .

ولقد برّ موسى فى قسمه وفعل ما أوعده به كما يدل على ذلك قوله (وانظر إلى إلهك) ولم يصرح بهذا تنبيها إلى وضوحه واستحالة الخلف فى وعيده المؤكد باليمين.

وفى فعله ذلك به عقوبة للسامرى و إظهار لغباوة المفتونين به لمن له أدنى نظر .

و بعد أن فرغ من إبطال الباطل شرع فى تحقيق الدين الحق فقال :

(إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو) أى ليس هذا بإلهكم ، و إنما المستحق للعبادة والتعظيم الله الذى لا إله إلا هو ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، فكل شىء فقير إليه ، وهو الخالق لكل شىء .

(وسع كل شىء علما) أي هو العالم بكل شىء وقد أحاط بكل شئ عدًا ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولافى الأرض ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا (١٠٤) .

شرح المفردات

ذكرا : أى قرآنا كما قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ » وسمى بذلك لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم ، والوزر : الحمل الثقيل ؛

والمراد به العقوبة التى تثقل على حاملها ، والصور : قرن ونحوه ينفخ فيه حين يدعى الناس إلى المحشر كما ينفخ فيه فى الدنيا حين الأسفار وفى المعسكرات ، زُرقا : أى زرق الأبدان سود الوجوه لما هم فيه من الشدائد والأهوال ، يتخافتون بينهم : أى يخفضون أصواتهم ويخفونها لشدة ما يرون من الهول ، إلا عشرا : أى عشرة أيام ، أمثلهم طريقة : أى أعدلهم رأيا وأرجحهم عقلا .

المعنى الجملى

بعد أن شرح قصص موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامرى ثانيا على نمط بديع وأسلوب قويم ـ بين لنبيه صلى الله عليه وسلم أن مثل هذا القصص عن الأمم الماضية والقرون الغابرة كعاد وثمود وأصحاب الأيكة ، نلقيه إليك تسلية لقلبك ، وإذهابا لحزنك ؛ إذ به تعرف ما حدث للرسل من قبلك من شدائد الأهوال وتذكيرا المستبصرين فى دينهم ، وتأكيدا للحجة على من عاند وكابر من غيرهم .

الإيضاح

(كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) يخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويبين له أنه كما قص عليه خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على هذا الأسلوب الرائع والمسلك البديع ـ يقص عليه أخبار الحوادث التى جرت على الأمم الخالية ، ليكون له فى ذلك سلوة ليتأسى بالأنبياء السالفين وما لاقوه من أممهم من شديد العناد والجحود والتكذيب ومكابدة الشدائد والأهوال .

(وقد آتيناك من لدنا ذكرا) أى وقد أعطيناك من لدنا كتابا جديرا بالتذكر به ، لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولم يعط نبى قبلك مثله ، فهو جامع للأخبار ، حاوٍ للأحكام التى فيها صلاح حال البشر فى دينهم ودنياهم ، مشتمل على مكارم الأخلاق وسامى الآداب التى بها يرتفع قدر الأمم وينبُه ذكرها .

(من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا) أى من كذب به وأعرض عن اتباعه وابتغى الهدى من غيره ، فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم ، وسيحمل يوم القيامة من الأوزار والآثام ما لا يقدر على حمله ، بل يُنقض ظهره ، وبمعنى الآية قوله : « وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ » .

وكل من بلغه القرآن من العرب والعجم من أهل الكتاب وغيرهم فهو نذير له فمن اتبعه هُدى، ومن أعرض عنه ضل وشقى فى الدنيا، والنار موعده يوم القيامة كما قال « لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » .

(خالدين فيه) أى مقيمين فى ذلك الوزر أى فى عقوبته لا يجدون عنها محيصا ولا انفكاكا .

(وساء لهم يوم القيامة حملا) أى وبئس الحمل الذى حملوه من الأوزار والآثام جزاء إعراضهم وسائر ذنوبهم .

(يوم ينفخ فى الصور) أى هذا اليوم هو يوم ينفخ فى الصور النفخة الثانية إيذانا بالقيام للحشر والحساب .

(ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) أى وفى هذا اليوم يساق المجرمون إلى المحشر شاحبى الألوان زرق الوجوه ، لما هم فيه من مكابدة الأهوال ومقاساة الشدائد التى تحلّ بهم .

(يتخافتون بينهم) أى يخفضون أصواتهم ويهمس بعضهم فى أذن بعض ، لما امتلأت به قلوبهم من الرعب والذعر ، وبمعنى الآية قوله تعالى : « فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » .

(إن لبثتم إلا عشرا) أى يقول بعضهم لبعض : ما لبثتم فى الدنيا إلا عشرة أيام ، ذاك أنهم لما عاينوا تلك الأهوال ذهلوا عن مقدار عمرهم فى الدنيا ، ولم يذكروا إلا القليل فقالوا ما عشنا إلا تلك الأيام القلائل .

والإنسان حين الشدائد والأهوال تغيب عنه أظهر الأشياء ، وأكثرها خطورا بباله .

(نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) أى نحن أعلم بالذى يقولونه فى مدة لبثهم ، لاهم ، حين يقول أعدلهم رأيا وأكملهم عقلا : مالبثتم إلا يوما واحدا .

ذاك أن الدنيا وإن تكررت أوقاتها ، وتعاقبت لياليها وأيامها ـ قصيرة المدى إذا قيست بالنظر إلى يوم القيامة . وكأن غرضهم بذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر الأجل ، على نحو ما جاء فى قوله : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » وقوله : « قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ » .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) .

شرح المفردات

ينسفها : أى يجعلها ذرات صغيرة ثم يصيرها هباء منثورا ، يذرها : أى يتركها ، القاع : الأرض التى لا بناء فيها ولا نبات قاله ابن الأعرابى ، والصفصف :

الأرض الملساء ، والعوج : الانخفاض ، والأمت : النتوء اليسير ؛ يقال مد حبله حتى ما فيه أمت ، والداعى : هو داعى الله إلى المحشر ، لاعوج له : أى لاعوج لدعائه فلا يميل إلى ناس دون ناس ، بل يسمع الجميع ، خشعت : ذلت ، والهمس : الصوت الخفىّ ، وعنت : خضعت وانقادت ، ومن ذلك العانى:وهوالأسير ، والقيوم: القائم بتدبير أمور عباده ومجازاة كل نفس بما كسبت ، خاب : أى خسر ، والظلم الأول : الشرك . والظلم الثانى : منع الثواب عن المستحق ، والهضم : النقص .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه حال يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال التى تجعل المجرمين يتخافتون فى حديثهم وينسون مقدار لبثهم فى الدنيا ، ويحشرون زرق الوجوه والأبدان إلى نحو أولئك مما سلف ـ قفى على ذلك بذكر سؤال من لم يؤمن بالحشر ـ عن الجبال وأحوالها فى ذلك اليوم ثم الإجابة عنه ، وضم إلى الجواب أمورا أخر تشرح شؤون هذا اليوم وأهواله ، فبين أن الأرض فى ذلك اليوم تكون مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، وأن الناس يسرعون إلى إجابة الداعى ولا يسمع لهم كلام إلا همس ، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين إلا إذا أذن لهم الرحمن ورضى للمشفوع له قولا ، ثم ذكر أن الله هو العليم بما أصابوا من خير أو شر، وهم لايحيطون به علما ، وفى ذلك اليوم تذل الوجوه وتخضع للواحد الديان ، وقد خسر حينئذ من ظلم نفسه فأشرك مع الله غيره وعبد معه سواه وعصى أوامره ونواهيه .

أما المتقون فإنهم لايظلمون فلا يزاد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش يامحمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة فنزلت الآية (ويسألونك عن الجبال) الخ .

ولا شك أن سؤالهم هذا سؤال تهكم واستهزاء وطعن فى الحشر والنشر، لاسؤال معرفة للحق وتثبيت له .

الإيضاح

(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا) أى يسألك المشركون أيها الرسول عن الجبال كيف تكون يوم القيامة ؟ فقل مجيبا لهم يدكها ربى دكا ويصيّرها هباء تذروه الرياح .

(فيذرها قاعا صفصفا. لاترى فيها عوجا ولا أمتا) أى فيدع أماكنها من الأرض بعد نسفها ملساء مستوية لانبات فيها ولا بناء ولا ارتفاع ولا انخفاض .

وخلاصة هـذا — لاترى فى الأرض يومئذ واديا ولا رابية ولا مكانا مرتفعا ولا منخفضا .

(يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له) أى يوم يرى الناس هذه الأهوال يتبعون صوت داعى الله الذى يجمعهم إلى موقف الحساب والجزاء ، ولا يكون لهم ميل عنه ولا انحراف ، ولـكنهم سراعا إليه يقبلون ، إذا أمروا بشىء قالوا لبيك ، ونحن بين يديك ، والأمر منك وإليك كما قال : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ » وقال : « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا » .

(وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا) أى وعلمت الخلائق أن لامالك لهم سواه ، ولا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس الذى لايكاد يفهم إلا بتحريك الشفتين لضعفه، وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ، ويضعف صوته، ويختلط قوله ، ويطول غمه ، قاله أبو مسلم .

(يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) أى يومئذ لاتنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع ورضى له قولا صدر منه .

والفاسق قد قال قولا يرضاه الرحمن فقد قال لا إله إلا الله كما روى عن ابن عباس.

والخلاصة — إن الشفاعة لاتكون نافعة للمشفوع له إلا بشرطين :

(١) إذن الله للشافع بالشفاعة .

(٢) رضا الله عن قول صدر من المشفوع له ، ليأذن بشفاعة الشافع له .
وقصارى ذلك — إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يرضى .

وبمعنى الآية قوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ » وقوله : « وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِى السَّمٰوَاتِ لاَتُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى » وقوله : « وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » وقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَيَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً » .

ولما نفى أن تنفع شفاعة بغير إذنه علل ذلك بقوله :

(يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) أى يعلم مابين أيدى عباده من شؤون الدنيا وما خلفهم من أمور الآخرة وهم لايعلمون جملة ذلك ولا تفصيله .

ولما ذكر خشوع الأصوات أتبعه خضوع ذويها فقال :

(وعنت الوجوه للحى القيوم) أى واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لايموت ، القائم على خلقه بتدبير شؤونهم ، وتصريف أمورهم .

وخص الوجوه بالذكر ، لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ، ولأن آثار الذل والغبطة والسرور تظهر عليها .

(وقد خاب من حمل ظلما) أى وقد حرم الثواب من وافى الموقف وهو مشرك بالله كافر بأنبيائه أو تارك لأوامره منغمس فى معاصيه .

وبعد أن ذكر أهوال يوم القيامة بين حال المؤمنين حينئذ فقال :

(ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) أى ومن يعمل صالح الأعمال على قدر طاقته وهو مؤمن بربه ورسله وما أنزله عليهم من كتبه فلا يخاف من الله ظلما بأن يحمل عليه سيئات غيره وأوزاره ، ولا يخاف أن يهضمه حسناته فينقصه ثوابها ، ونحو الآية قوله : « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

وخلاصة ذلك — إنه لايؤاخذ العبد بذنب لم يعمله ، ولا يبطل له حسنة قد عملها .

وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) .

شرح المفردات

صرّفنا : كررنا وفصلنا ، ذكرا : أي عظة وعبرة ، فتعالى الله أي تنزه وتقدس الحق : أي الثابت فى ذاته وصفاته ، يقضى إليك وحيه : أي يتم جبريل تبليغه لك .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه أنه كما أنزل الآيات المشتملة على الوعيد المنبئة بما سيحدث من أحوال القيامة وأهوالها ـ أنزل القرآن كله كذلك على نمط واحد قرآنا عربيا ليفهمه العرب ويقفوا على مافيه من النظم البديع ، والأسلوب العجيب الخارج عن طوق البشر ، ثم بين عز اسمه نفع هـذا القرآن لعباده ، وأنه سبحانه موصوف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص ، وأنه يصون رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل إياه مخافة النسيان ، فنهى عن ذلك وقيل له : لاتعجل به إلى أن يستتم وحيه فيكون أخذك إياه عن تثبت وسكون ، والله يزيدك فهما وعلما .

الإيضاح

(وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا) أى ومثل إنزال ماذكر من الوعد والوعيد وبيان أحوال يوم القيامة وأهوالها ـ أنزلنا القرآن كله بأسلوب عربى مبين ، ليتفهمه العرب الذين نزل عليهم ويتفقهوا بدراسته ، ويسعدوا بالعمل بما حواه مما فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم .

(وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) أى وخوفناهم فيه بضروب من الوعيد كى يجتنبوا الشرك والوقوع فى المعاصى والآثام ، أو يحدث لهم عظة تدعوهم إلى فعل الطاعات .

وخلاصة ذلك — إنهم بدراستهم إما أن يصلوا إلى مرتبة هى ترك المعاصى والوقوع فى الآثام ، وإما أن يرتقوا إلى مرتبة هى فوق ذلك ، وهى أن يفعلوا الطاعات ويؤدوا الفرائض والواجبات .

وبعد أن عظم الله كتابه أردفه بتعظيم نفسه فقال :

(فتعالى الله الملك الحق) أى تقدس الله المتصرف بالأمر والنهى الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده ، وهو الثابت الذى لايزول ولا يتغير ـ من ألا يكون إنزال القرآن على من أنزل عليهم مؤديا إلى الغاية التى أنزل لأجلها وهى تركهم للمعاصى وفعلهم للطاعات .

ولا يخفى مافى هـذا من طلب الإقبال على دراسة القرآن وبيان أن قوارعه وزواجره سياسات إلهية فيها صلاح الدارين لايحيد عنها إلا من خذله الله ، وأن ماتضمنه من الوعد والوعيد حق كله لا يحوم الباطل حول حماه ، وأن المحق من أقبل عليه بشراشره ، والمبطل من أعرض عن تدبر زواجره .

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) أى ولا تعجل بقراءته فى نفسك من قبل أن يتم جبريل تبليغه لك ، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا ألقى

عليه جبريل القرآن يتبعه حين يتلفظ بكل حرف وكل كلمة خوفا أن يصدر عليه السلام ولم يحفظه ، فنهى عن ذلك، إذ ربما يشغله التلفظ بالكلمة عن سماع مابعدها.

وفى هذا أنزل قوله تعالى : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

وخلاصة ذلك — أنصت حين نزول الوحى بالقرآن عليك ، حتى إذا فرغ الملك من قراءته ، اقرأه بعده .

(وقل رب زدنى علما) أى سل الله زيادة فى العلم دون استعجال بتلاوة الوحى فإن ما أوحى إليك يبقى لامحالة ، روى الترمذى عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ماينفعنى ، وزدنى علما ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار » وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم زدنى إيمانا وفقها ، ويقينا وعلما .

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣)

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) .

شرح المفردات

العهد : الوصية يقال عهد إليه الملك بكذا وتقدم إليه بكذا: إذا أمره وأوصاه به ، من قبل:أى من قبل وجود هؤلاء المخالفين، فنسى: أى فترك ، ولم نجد له : أى لم نعلم، والعزم على الشيء : تصميم الرأى والثبات عليه ، أبى : أى امتنع ، فتشقى : أى تتعب بمتاعب الدنيا وهى لاتكاد تحصى ، تظمأ : تعطش ، تضحى : أى تصيبك الشمس يقال ضحا كسعى وضحى كرضى : إذا أصابته الشمس بحرها اللافح ، شجرة الخلد : أى الشجرة التى إذا أكل منها الإنسان خلد ولم يمت، لايبلى: أى لايفنى، طفقا يخصفان أى شرعا يلزقان ورق التين على سوءاتهما لسترها ، غوى : أى ضل عن الرشد حيث اغترّ بقول عدوه ، واجتباه : اصطفاه وقربه إليه ، وهدى : أى إلى الثبات على التوبة عن ذكرى : أى عن الهداية بكتبى السماوية ، والضنك : الضيق الشديد ، أعمى : أى عن النظر فى الحجج والبراهين الإلهية ، عن آياتنا : أى عن أدلتنا ، فنسيتها : أى فتركتها ، وتنسى : أى تترك ، أسرف : أى انهمك فى الشهوات واسترسل فيها.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه صرّف الوعيد فى القرآن وكرره لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ــ قفى على هذا ببيان أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك ونسوه كما لم يلتفت أبوهم آدم

إلى الوعيد ونسى العهد ، فمخالفتهم قديمة وعرقهم فيها راسخ . ثم فصل عهده لآدم وبين كيف نسيه وفقد العزم ، ثم ذكر عصيان إبليس للسجود لآدم وتحذيره من الخروج من الجنة إذا هو اتبع نصائحه ، وهو بعد كل هـذا قد أطاع وساوسه وقبِل إرشـاده ، فأكل من الشجرة التى نُهِى عن الأكل منها ، فأُخرج من الجنة مع إعلامه بأن الشيطان عدو له ولذريته ، ثم بين أن من جاءه الهدى من ربه واتبعه عاش فى الدنيا قرير العين هادئ البال ، ويؤتى فى الآخرة ما شاء الله أن يؤتى من ألوان النعيم والسعادة ، ومن أعرض عن ذلك عاش فى الدنيا عيشة ضنكا ، إذ هو لشدة حرصه عليها يخاف انتقاصها ، ومن ثَمّ يغلب عليه الشح والبخل ويفعل كل منكر فى سبيل جمع المال من أى وجه كان ولا يبالى أمن حلال كان أم من حرام ، ولذلك تراهم يقولون (الغاية تبرر الواسطة) . أما المؤمن الذى لايعنيه جمع حطام الدنيا فإنه فى سرور وراحة قلّ ماله أو كثر .

وهو فى الآخرة يكون أعمى عن الحجة التى تنقذه من ذلك الخزى الدائم والعذاب المقيم .

ثم أردف هذا ببيان سبب ذلك وهو إعراضه فى الدنيا عن الآيات البينات التى تهديه إلى سبيل الرشاد ، ومن ثم يسير فى جهالته إلى يوم القيامة ، وهذا مما يوجب له أشد الآلام الروحية من حين مماته إلى حين الحشر ، وهكذا يجازى الله المسرفين المكذبين بآياته فى الدنيا والآخرة جزاء وفاقا لما اجترحوا من السيئات ، وارتكبوا من الذنوب والآثام كما قال سبحانه : « لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ » .

الإيضاح

(ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) أى ولقد وصينا آدم وقلنا له إن إبليس عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة ، فوسوس إليه الشيطان فأطاعه

وخالف أمرى وترك العهد الذى أمرته به ولم يهتم بالعمل به ، ولم نجد له ثباتا فى الرأى ولا تصميما فى العزيمة .

وخلاصة ذلك — إنه ترك ماوُصِّى به من الاحتراس من الأكل من الشجرة.

ثم بين سبحانه المعهود به وكيفية نسيانه وفقدان عزمه فقال :

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) أى واذكر أيها الرسول الكريم ماوقع فى ذلك الحين منا ومن آدم حتى يستبين لك نسيانه وفقدان عزمه ، إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فلبوا الأمر إلا إبليس فإنه امتنع وأبى أن يكون مع الساجدين .

وقد تقدم هذا القصص فى سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف ، وسيأتى ذكره فى سورة صٓ؛ وفيه إشارة إلى تكريم آدم وتشريفه وتفضيله على كثير ممن خلق .

(فقلنا يا آدم إن هـذا عدوّ لك ولزوجك) أى فقلنا له عقب ذلك رعاية لإرشاده ونصحه : إن هذا الذى رأيت منه ما رأيت ــ عدوٌّ لك ولزوجك ، ومن ثم لم يسجد لك وخالف أمرى وعصانى ، فلا تطيعاه فيما يأمركما به .

(فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) أى فلا يكونن سببا لإخراجكما من الجنة ، فتتعبا بمتاعب الدنيا التى لاتكاد تحصى .

وخلاصـة ذلك — إياك أن تسعى فى إخراجك منها فتتعب وتشقى فى طلب رزقك ، وأنت هاهنا فى عيش رغيد هنىء بلا كلفة ولا مشقة .

ثم علل ما يوجبه النهى عن ذلك فقال :

(إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى) أى لا يكون لك فى الجنة جوع ولا عرى . ولا ظمأ ولا إصابة بحر الشمس .

وقرن بين الجوع والعرى أوّلا ، لأن فى الجوع ذل الباطن وفى العرى ذل الظاهر ، وبين حر الباطن وهو العطش وحر الظاهر وهو الضحى ثانيا .

وخلاصة ذلك — إن الجنة اجتمعت فيها الأسباب التى توجب راحة الإنسان، وذلك مما يوجب الاهتمام بتحصيل الوسائل التى توجب البقاء فيها ، والابتعاد عما يدعو إلى الخروج منها .

وقصارى ذلك — إن لك فيها تمتعا بأنواع المعاش وتنعما بأصناف النعم من المآكل الشهية ، والملابس البهية .

وبعد أن بين أنه عظم آدم وعرفه شدة عداوة إبليس له ـ بين أنه قبل نصحه وأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها فقال :

(فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى؟) أى فألقى الشيطان النصيحة إلى آدم وقال له : هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت ولم تمت وملكت ملكا لاينقضى ولا يفنى .

(فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أى فأكل آدم وحواء من الشجرة التى نهيا عن الأكل منها وأطاعا أمر إبليس وخالفا أمر ربهما ، فانكشفت عورتهما وكانت مستورة عن أعينهما ، فشرعا يلزقان ورق التين عليهما ليغطيا جسمهما .

(وعصى آدم ربه فغوى) أى وخالف أمر ربه ، وتعدى مالم يكن له أن يتعدى إليه من الأكل من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها .

(ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) أى ثم اصطفاه ربه من بعد معصيته ورزقه التوبة والعمل بما يرضيه حين قال هو وزوجه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

(قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) أى قال الرب الذى انتهكت حرمة داره وخولف أمره . انزلا من الجنة إلى الأرض ، أنتما عدو لإبليس وذريته ، وإبليس عدوكما وعدوّ ذريتكما .

(فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) أى فإن يأتكم

يا آدم وحواء وذريتهما بيان لسبيلى وما أختاره لخلقى من دين بإرسال الرسل والكتب فمن اتبع ذلك وعمل به ولم يزغ عنه فإنى أهديه فى الدنيا وأرشده إلى محجة الصواب ولا يشقى فى الآخرة

أخرج ابن أبى شيبة والحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال : « أجار الله تابع القرآن من أن يضل فى الدنيا أو يشقى فى الآخرة . ثم قرأ الآية » . وروى عنه مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم « من اتبع كتاب الله هداه الله تعالى من الضلالة فى الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة » .

(ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا) أى ومن أعرض عن ذكرى الذى أذكّره به وتولى عنه ولم يتعظ به فينزجر عما هو مقيم عليه من مخالفة أمر ربه ، فإن له معيشة ضيقة شديدة لما يكون فيه من القلق والحرص على الدنيا والتهالك على ازديادها والخوف من انتقاصها ، فترى الشح غالبا عليه ، والبخل راسخا فى أعراقه .

(ونحشره يوم القيامة أعمى) عن الجنة ، لأن الجهالة التى كانت له فى الدنيا تبقى كذلك فى الآخرة ، وهذا يصير سببا لأعظم الآلام الروحية له .

وقصارى ذلك إن الله عز اسمه جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه العيش الهنىء الذى لاهمّ فيه ولا غم ، وجعل لمن أعرض عن دينه التعب والنصب ، وهو فى الآخرة أشد تعبا وأعظم ضيقا وأكثر ألما .

(قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟) أى قال رب لم حشرتنى أعمى عن حجتى وعن رؤية الأشياء على حقيقتها ، وقد كنت فى الدنيا ذا بصر بذلك كله ؟ ، ونحو الآية قوله : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً » .

(قال) ربه مجيبا هذا السائل :

(كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى فكما تركت آياتنا ترك المنسى الذى لايذكر أصلا وأعرضت عنها ــ اليوم ننساك فنتركك فى النار .

(وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه) أى وهكذا نعاقب من أسرف فعصى ربه ولم يؤمن برسله وكتبه ، فنجعل له معيشة ضنكا .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال فى الآية : يقول كل مال أعطيته عبدا من عبادى قل أو كثر لايتقينى فيه فلا خير فيه وهو الضنك فى المعيشة ، وعن عكرمة ومالك بن دينار نحوه ، وقيل إن تلك المعيشة له فى القبر بأن يعذب فيه ، وقد روى ذلك عن جماعة منهم ابن مسعود وأبو سعيد الخُدْرىّ ومجاهد ، وروى ذلك مرفوعا أيضا فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن حبان وابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له قبره سبعين ذراعا ويضىء حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، وهل تدرون فيم أنزلت (فإن له معيشة ضنكا) ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً ، هل تدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية ، لكل حية سبعة رءوس يخدشونه ويلسعونه وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : المعيشة الضنك فى النار شوك وزقوم وغسلين وضريع وليس فى القبر ولافى الدنيا معيشة ، وما المعيشة والحياة إلا فى الآخرة.

(ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) أى ولعذاب الآخرة فى النار أشد مما نعذبهم به فى الدنيا وأكثر بقاء ، لأنه لا أمد له ولا نهاية .

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا

مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) .

شرح المفردات

أفلم يهد لهم : أى أفلم يبين لهم العبَر ، لأولى النهى : أى لذوى العقول الراجحة لزامًا : أى لازما لهم لايتأخرعنهم ، فسبح بحمد ربك: أى اشتغل بتنزيه الله وتعظيمه آناء الليل : ساعاته واحدها إنًى و إنو (بكسرالهمزة وسكون النون) ولاتمدن عينيك: أى لاتطيلن النظر رغبة واستحسانا ، متعنا : أى جعلناهم يتلذذون بما يدركون من المناظرالحسنة و يسمعون من الأصوات المطربة و يشمون من الروائح الطيبة ، أزواجا: أى أشكالا وأشباها ، زهرة الحياة الدنيا : أى زينتها وبهجتها ، لنفتنهم : أى لنبتليهم ونختبرهم ، ورزق ربك : أى ما ادخره لك ، واصطبر عليها : أى دم عليها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال من أعرض عن ذكر الله فى الآخرة بقوله : ونحشره يوم القيامة أعمى ـ أتبعه بما يكون عبرة للمشركين لو تفكروا فيه ، وهو ما نزل بالمكذبين بالرسل ممن قبلهم من الأمم الذين يمرون بديارهم بكرة وعشيا كقوم عاد وثمود ، وكيف أصبحت ديارهم خرابا بلقعا ليس فيها ديّار ولا نافخ نار ، ثم بين أنه لولا سبق الكلمة بتأخير عذابهم إلى أجل مسمى لحاق بهم مثل ما حاق بمن قبلهم، ثم أمر رسوله بالصبر على ما يسمونه به من نحو قولهم : إنه ساحر ،و إنه شاعر، و إنه مجنون وعدم المبالاة بمقالتهم ، وعنيه أن يكثر من التسبيح وعبادة ربه آناء الليل وأطراف النهار ولا يلتفت إلى شىء مما متع به الكفار من زهرة الدنيا التى أوتيت

لهم لتكون ابتلاء واختبار ، وما عند الله خير منها وأبقى ، ثم طلب إليه أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر عليها ، وهو لا يكلفه رزقا لنفسه ولا لغيره ، فالله يرزقه من واسع فضله وعظيم عطائه ، والعاقبة لمن اتقى : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

الإيضاح

(أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ؟) أى أفلم يرشدهم إلى وجه العبرة ، إهلاكنا كثيرا من الأمم الماضية والقرون الغابرة التى يمرون عليها مصبحين وبالليل: كعاد وثمود الذين يشاهدون آثارهم العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعيم ثم ما حل بهم من صنوف البلاء ، فيتعظوا ويعتبروا ويؤمنوا بالله ورسوله خوف أن يصيبهم بكفرهم مثل ما أصاب هؤلاء السابقين .

وللمشاهدة من العبرة ما ليس لغيرها فقد قالوا « ليس الْخُبْرُ كالخَبَر » وقالوا : « ما راءٍ كمن سمع » .

وخلاصة ذلك — إن فى مشاهدة ما حصل للأمم الماضية ، ورؤية آثارها البائدة التى يمرون عليها فى رحلاتهم فى الصيف لعبرةً وزاجرا لهم لو كانوا يعقلون .

ثم علل هذا الزجر والإنكار بقوله :

(إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) أى إن فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثار وقائعنا بالأمم المكذبة لرسلنا وحلول المثلات بهم لكفرهم بربهم — لعبرًا وعظات لأرباب الحجا الذين ينهاهم دينهم ويؤنبهم عقلهم من مواقعة ما يضرهم .

ولما هدد المشركين بالهلاك كهلاك المكذبين من الماضين ، ذكر سبب تأخير ذلك عنهم فقال :

(ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزامًا وأجل مسمى) أى ولولا الكلمة النافذة التى سبقت منا فى الأزل ، وهى أن أمة محمد — وإن كذبوا — سيؤخر عذابهم

ولا يفعل بهم ما فعل بغيرهم من عذاب الاستئصال ، كما قال: « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » يعجل لهم العذاب كفاء ما قاموا به من تكذيب الرسول و إيذائه .

وقد جعل العلماء من الحكمة فى تأخير العذاب أنه ربما تاب بعضهم أو خرج من أصلاب بعضهم من يؤمن ، فيكون فى ذلك إكرام لنبيه ، ورحمة لأمته ، وتكثير لسواد أتباعه ، و إلى ذلك أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : « و إنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تبعا » .

و بعد أن أخبر سبحانه بأنه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله ـ أمره بالصبر على ما يقولون فقال :

(فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار) أى واصبر أيها الرسول على ما يقول هؤلاء المكذبون بآيات الله من نحو قولهم : إنك لساحر ، و إنك لمجنون ، و إنك لشاعر ، واشتغل بتنزيه الله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وفى ساعات الليل المختلفة وفى أطراف النهار ، والمراد من مثل ذلك عموم الأوقات ، وفى صحيح مسلم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا وقرأ هذه الآية » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، و إن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك » .

وعن زيد بن ثابت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كانت

الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له » .

(لعلك ترضى) أى سبحه رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك من الثواب .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى : يا أهل الجنة فيقولون: لبَّيْك ربَّنا وسَعدَيْك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول إنى أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

ولما صبر رسوله على ما يقولون وأمره بالتسبيح ـ أتبع ذلك بنهيه عن مدّ عينيه إلى ما متعوا به من زينة الدنيا فقال :

(ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) أى ولا تطل النظر استحسانا ورغبة فيما متع به هؤلاء المترفون من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، نختبرهم بها ، ونعلم هل يؤدون شكرها أوتكون وبالاً عليهم ونكالاً لهم ، وقد آتاك ربك خيرا مما آتاهم ، فرضاه خير وأبقى كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » .

وخلاصة هذا ـــ التنفير من الانهماك فى التمتع بزهرة الدنيا لسوء عاقبتها .

روى أبو رافع «أنه نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فأرسلنى إلى يهودى بالمدينة يستسلفه ، فأتيته فقال: لا أسلفه إلا برهن ، فأخبرته بذلك فقال : إنى لأمين فى أهل السماء وفى أهل الأرض ، فاحمل درعى إليه ، فنزل (ولا تمدن عينيك)الآية» .

وبعد أن أمر الله نبيه بتزكية النفس أمره أن يأمر أهله بالصلاة فقال :

(وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى)

أى وأمر أهلك أيها الرسول بالصلاة وحافظ أنت عليها فعلاً ، فإن الوعظ بالفعل أشد أثرا منه بالقول كما قال :

يأيها الرجل المعلم غيره هلاّ لنفسك كان ذا التعليم

وإنا إنما نريد منك ومنهم العبادة والتقوى ، ولا نطلب منك رزقا كما تطلب السادة من عبيدهم الخراج ـ والعاقبة الجمية لمن اتقى الله وأطاعه ، فإن ماعندهم ينقطع، وما عند الله دائم لايفنى كما قال : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ » .

والخلاصة — داوم على الصلاة ، لانكلفك مالاً ، بل نكلفك عملا نؤتيك عليه أجرا عظيما وثوابا جزيلا ، ونحن نعطيك المال ونكسبكه ولا نسألكه ، والعاقبة الصالحة لأهل الخشية والتقوى لا لمن لايخاف له عقابا ولا يرجو ثوابا كما قال : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ » وقال : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ » .

عن أبى رافع قال : « نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن عنده مايصلحه فأرسلنى إلى رجل من اليهود أن بعنا أو أسلفنا دقيقا إلى هلال رجب ، فقال لا إلا برهن فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال أما والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، ولئن أسلفنى أو باعنى لأدّيت إليه، اذهب بدرعى الحديد، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية كأنه يعزيه عن الدنيا » أخرجه البزار وأبو يعلى وابن أبى شيبة فى جماعة آخرين .

وأخرج ابن المنذر والطبرانى وأبو نعيم فى الحلية عن عبد الله بن سلام قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة وتلا : وأمر أهلك بالصلاة .

وأخرج مالك والبيهقى عن أسلم قال : كان عمر بن الخطاب يصلى من الليل

ما شاء الله تعالى أن يصلى حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم : الصلاةَ الصلاةَ ويتلو هذه الآية .

وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥) .

شرح المفردات

لولا : أى هلا : وهى كلمة تفيد الحث على حدوث ما بعدها ، آية : أى معجزة تدل على صدقه ، البينة : القرآن ، والصحف الأولى : التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية ، نذل : أى نهان ، ونخزى : أى نفتضح ، متربص : أى منتظر ، الصراط : الطريق ، والسوىّ : أى المستقيم .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه رسوله بالصبر على أقاويلهم التى أرادوا بها تكذيبه والكيد له وشديد الأذى به — حكى بعض تلك الأقاويل الباطلة ، ومنها ادعاؤهم أن القرآن ليس بحجة ولا معجزة تدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أبان لهم أنهم يوم القيامة سيعترفون بأنه آية بينة ، فلو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا . ومن ثم لم نهلكهم قبله حتى تنقطع معذرتهم كما حكى الله عنهم من قوله : « قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ » .

ثم ختم السورة بضرب من الوعيد فقال : قل لهم كل منا ومنكم منتظر لما يئول إليه أمرنا وأمركم ، وحينئذ يتميز الحق من المبطل بما يظهر على الأول من أنواع الكرامة والتعظيم ، وعلى الثانى من ضروب الخزى والإهانة ، ويظهر مَن مِنّا سار على الطريق السوى ومن المهتدى ؟ .

الإيضاح

(وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) أى وقال المشركون : هلا يأتينا بمعجزة تدل على صدقه فى دعوى النبوة كما أتى صالح قومه بالناقة وموسى بالعصا وعيسى بإحياء الموتى وإبراء الأكمه ، وهم بذلك قد بلغوا فى العناد والمكابرة شأوا بعيدا ، أفلا يعدّون ما شاهدوه من المعجزات التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى يجترئوا على التفوّه بهذه الكلمة الشنعاء ؟ .

ونحو الآية قوله فى سورة العنكبوت : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » وقوله : « فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » .

(أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ؟) أى ألم يأتهم القرآن وهو أم الآيات وأنفع المعجزات ، فالعلم هو أجلّ الأمور وأعلاها ، وهو مبدأ الأمور ومنتهاها ، فيه تنال السعادة الأبدية ، فأى معجزة تطلب بعده ، وهو الذى جمع ما فيه مصلحة البشر وصلاح المجتمع فى معاشه ومعاده ، وهو الشاهد على حقية ما فى الكتب قبله وما جاء فيها من العقائد وأصول الأحكام التى اتفقت عليها الرسل كافة .

وخلاصة ذلك — أليس قد جاءهم القرآن وهو البينة والشاهد على صحة ما فى الكتب الأولى ، وكفى بذلك آية ، ولا حاجة للرسول بعدها إلى آية .

ثم بين أن المشركين يوم القيامة يعترفون بأن القرآن آية بينة ، فقال :

(ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) أى ولو أنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال من قبل إتيان البينة وهى القرآن لقالوا يوم القيامة : ربنا هلا أرسلت إلينا فى الدنيا رسولا معه الآيات الدالة على صدقه ، فنتبع حججك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك من قبل أن نذل بتعذيبك ونفتضح به .

والخلاصة — إنا لو أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم الكتاب العظيم ــ لقالوا: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه ، لكنا لم نهلكهم قبله فانقطعت معذرتهم .

(قل كل متربص فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوىّ ومن اهتدى) أى قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين بالله : كلنا منتظر لمن يكون الفلاح ؟ وإلام يئول أمرى وأمركم ؟ فتربصوا وارتقبوا ، فستعلمون من أهل الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه إذا جاء أمر الله وقامت القيامة ؟ أنحن أم أنتم ؟ وستعلمون من المهتدى الذى هو على سنن الطريق القاصد ؟ .

ونحو الآية قوله : « وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً؟ » وقوله : « سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ » .

وغير خافٍ مافى بدء السورة وخاتمتها من المناسبة ، فإنها بدئت ببيان أن القرآن قد أنزل لتحمل تعب الإبلاغ ، وحيث قد بلغتَ فلا عليك ، وختمت بطلب الإقبال على طاعة الله قدر الطاقة وأمر أهله بالصلاة وترك الذين لاينجع فيهم الإنذار ، فإنه تذكرة لمن يخشى ، وسيندم المخالف حيث لاينفع الندم .

خلاصة لما تضمنته السورة الكريمة

(١) إن القرآن أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم تذكرة لمن يخشى ، أنزله من خلق الأرض والسموات العلى .

(٢) قصص موسى عليه السلام وتكليمه ربه فى الطور ، وحديث العصا واليد البيضاء من غير سوء ، وطلبه من ربه أن يجعل له أخاه هرون وزيرا وإجابة سؤاله فى ذلك ، وامتنانه عليه بما حدث له حين وضع فى التابوت وألقى فى اليمّ وقصّ أخته ورجوعه إلى أمه ، ثم طلب ربه منه أن يبلغ فرعون دعوته وينصح له فى قبول دينه وإقامة شعائره ، وإجابة فرعون له بأنه ساحر كذاب ، وأنه سيجمع له السحرة ثم إيمان السحرة به فتوعدهم فرعون بالعذاب فلم يأبهوا له ، واستمر فرعون فى غيه حتى أوحى الله إلى موسى أن يخرج من مصر فأتبعه هو وجنوده فأغرقوا .

(٣) حديث السامرى وإضلاله بنى إسرائيل باتخاذه عجلا جسدا له خوار حين كان موسى بالطور ، وحين رجع ورأى ذلك هاله الأمر وغضب من أخيه هرون وأخذ يجره من رأسه ، ثم إغلاظه القول للسامرى ودعوته عليه بأنه يعيش طريدا فى الحياة وسيعذبه الله فى الآخرة أشد العذاب ، ثم نسف إلهه وإلقاؤه فى اليمّ .

(٤) بيان أن من أعرض عن القرآن فإنه سيلقى الجزاء والوبال يوم القيامة .

(٥) ذكر أوصاف المجرمين حينئذ ، وأنهم يختلفون فى مدة لبثهم فى الدنيا .

(٦) سؤال المشركين عن حال الجبال يوم القيامة ، وأن الأصوات حينئذ تخشع للرحمن فلا تسمع إلا همسا ، وأن الوجوه تخضع لربها القائم بأمرها .

(٧) وصف القرآن الكريم بأنه عربى مبين أنزل تذكرة للناس ، وأن الله سيعصم رسوله من نسيانه ، فلا ينبغى أن يعجل بتلاوته قبل أن يتم تبليغ جبريل له .

(٨) قصص آدم عليه السلام مع إبليس ، وترك آدم للعهد الذى وصاه به ربه ، وقبول نصيحة إبليس مما كان سببا فى إخراجه من الجنة .

(٩) بيان أن من أعرض عن ذكر ربه عاش فى الدنيا عيشة ضنكا وعمى فى الآخرة عن الحجة التى تنقذه من العذاب ، لأنه قد كان فى الدنيا أعمى عنها تاركا لها فتركه ربه من إنعامه .

(١٠) بيان أن فى المثلات التى سلفت للأمم قبلهم ممن يمرون على ديارهم مصبحين وبالليل كعاد وثمود - ما كان ينبغى أن يكون رادعا لهم وزاجرا لو تدبروا وعقلوا .

(١١) إن كلمة الله قد سبقت بأنه سيؤخر عذاب المشركين إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة .

(١٢) طلبه من رسوله تنزيهه والثناء عليه آناء الليل وأطراف النهار رجاء أن يعطيه ما يرضيه .

(١٣) أمر رسوله أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر هو عليها وهى لاتكون شاغلا لهم عن الرزق .

(١٤) طلب المشركين من الرسول أن يأتيهم بآية من نوع ماأوتى الرسل الأولون .

(١٥) إن إنزال القرآن على رسوله ليزيح العلة ويمنع المعذرة يوم القيامة ، فلا يقولون : لولا أرسلت إلينا رسولا وأتيتنا بكتاب نتبعه .

(١٦) وعيد المشركين بأنهم يتربصون ، وسيعلمون يوم القيامة لمن يكون حسن العاقبة ؟

ربنا إنك رءوف بعبادك رحيم بهم ، ربنا اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وصل ربنا على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تمت مسودة هذا الجزء فى صبيحة اليوم الرابع والعشرين من شوال سنة ثلاث وستين وثلثمائة وألف بعد الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء